
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

من القضايا القديمة ـ الجديدة :

اثر ظهور الحركة القومية العربية في اندثار الامبراطورية العثمانية

د . أسعد عبد الرحمن

الاستاذ المساعد بقسم العلوم السياسية
ورئيس تحرير مجلة العلوم الاجتماعية في جامعة الكويت .

الدراسات عن الحركة القومية العربية كثيرة . وهي ، في مجموعها ، دراسات اجابت بدقة على أسئلة عديدة . غير انه من المؤكد ان اسئلة اخرى ـ وبالذات تلك المتعلقة ببدايات تلك الحركة ـ بقيت دون جواب حاسم . بل ان واحدة من احدث الدراسات العربية وابرزها ابتكارا اثارت ، في معرض تحليلها ، أسئلة قديمة ـ جديدة بعضها يتعلق بالمنهج ، وبعضها الاخر يتعلق بالوقائع (١). ومع ان الدراسات العديدة المتعلقة بالامبراطورية العثمانية ، الصادرة باللغة الانجليزية في ربع القرن الماضي (٢) ، قد اوضحت جوانب اساسية خاصة بالبيئة التي نمت فيها الحركة القومية العربية ، فانه لمن المرجح انه سيمضي وقت طويل قبل ان يسدل ستار البحث نهائيا حول وقائع وقضايا بدايات الحركة القومية

(١) المقصود هنا الدراسة التي وضعها الدكتور وليد قزيها حول التحليل التاريخي للفكر القومي العربي وتطور الحركة القومية العربية في المشرق العربي . وقد نشرت الدراسة تحت عناوين مختلفة على النحو التالي :

أ ـ الحلقة الاولى ، « فكرة الوحدة العربية في مطلع القرن العشرين » ، **المستقبل العربي** (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، العدد ٤ ، تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٧٨) ، الصفحات ١٢ ـ ٢٦ .

ب ـ الحلقة الثانية ، « القومية العربية في مرحلة ما بين الحربين العالميتين » ، **المصدر السابق** (العدد ٥ ، كانون الثاني / يناير ١٩٧٩) ، الصفحات ٥٥ ـ ٦٦ .

جـ ـ الحلقة الثالثة ، « الاسس الاجتماعية ـ السياسية لنمو الحركة القومية المعاصرة في المشرق العربي » ، **المصدر السابق** (العدد ٦ ، آذار / مارس ١٩٧٩) الصفحات ٦٣ ـ ٧٥ .

اما النقاش الذي أثارته هذه الدراسة فتجلى في الندوة التي عقدها مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت في مطلع العام ١٩٨٠ . انظر ملخصا لتلك الدراسة وما أثارته من نقاش ، وما تبعه من تعليق الدكتور قزيها ، في : مجموعة مؤلفين ، **القومية العربية في الفكر والممارسة** (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٠) الصفحات ٢١ ـ ٨٣ .

(٢) ومن الامثلة على هذه الدراسات نورد التالية :

1) R. Davison. **Reform in the Ottoman Empire 1856-1876** (Princeton: Princeton University Press,1963).
2) B.Lewis. **The Emergence of Modern Turkey** (London: Oxford University Press. 1961).
3) S.Mardin. **The Genesis of Young Ottoman Thought** (Princeton: Princeton University Press. 1962).
4) F.Frey. **The Turkish Political Elite** (Cambridge. Mass.: The M.I.T. Press. 1965).
5) H.A.R. Gibb and H.Bowen. **Islamic Society and the West,** 2Vol. (London: Oxford University Press. 1950 1957).
6) G.W.F., **The Ottoman Turks and the Arabs** (Urbana: University of Illinois Press,1942).
7) A.LTibawi,**A Modern History of Syria** (London: Macmillan 1969).
8) M.Mao'z , **Ottoman Reform in Syria and Palestine 1840-1861** (Oxford: Oxford University Press. 1968).

العربية وغيرها مما يشابهها من الظواهر .

السبب الرئيسي **الاول** في كون واستمرار ظاهرة حركة القومية العربية « مفتوحة » الافاق ومستعصية على الاجابات والتقويمات النهائية ، ناجم عن « طبيعة » العلوم الاجتماعية وعن « الحالة الراهنة » لهذه العلوم التي تندرج ضمن نطاقها هذه الظاهرة . فالعلوم الاجتماعية ما تزال تشكو من ثغرات واضحة سواء على صعيد تقرير المنهج الحاسم ، او في مجال استكمال وتقرير المعلومات القاطعة ، او على طريق الاتفاق الكامل على « لغة مفاهيم » واحدة . ومع ذلك ، فالمسالة لاتدور بالتاكيد في حلقة « العبثية » اذ ، من الثابت ، انه امكن تحقيق بعض التقدم في هذا المجال ، ولو بوتائر متواضعة وبطيئة ، على امتداد السنوات القليلة الماضية(٣).

اما السبب الرئيسي **الثاني** المسؤول عن صعوبة معالجة موضوع كموضوع بدايات الحركة القومية العربية فعائد الى المعضلة القديمة ـ الجديدة الخاصة بالكيفية الموضوعية التي يستطيع بها الباحث تقويم الاحداث والمواقف المنصرمة ، دون ان تجرفه اغراءات تلوين واقع الماضي ومفاهيمه بالوان الباحث الايديولوجية الذاتية الراهنة . ثم كيف تجاوز المرء بتقويمه ذاك خطر القيام بمجرد اسقاط معايير ومكتشفات الحاضر على الماضي . بل وكيف يحمي الباحث تقويمه دون ابتزاز ظروف الماضي الموضوعية اكثر مما تحتمل . وحول هذه المسالة بالذات ، وفيما يتصل مباشرة بموضوع هذا البحث ، من المفيد الاعتراف بان « النقد التحليلي لاحداث اوائل هذا القرن في بلاد الشام يبدو متجنيا بعض الشيء اذ يرى الاشخاص والاشياء والاحداث بمنظار سبعينات (وربما ثمانينات) هذا القرن وفي ضوء مفاهيم ماكانت لتخطر للمشاركين في وضع الاحداث انذاك ببال » ، وبخاصة وان البعض يستسهل هذه الايام « وبعد ان انقضى على تلك الاحداث والافكار ما يزيد على نصف قرن الصاق جسميات وخلق روابط بين احداثيات وادانة وتمجيد شخصيات » (٤).

اما السبب الرئيسي **الثالث** ، الاوضح من غيره ، فمتصل بكون موضوع الحركة القومية العربية وما لها وما عليها ، قد عاد ليتخذ لنفسه مكانا على خشبة المسرح السياسي العربي الراهن . بل ان هذا الموضوع سخن بفعل حرارة الحوار والنقاش والصراع السياسي والايديولوجي الدائر في وسط

---

(٣) حول معضلة « المنهج » الافضل في العلوم الاجتماعية ، انظر ما قاله الاساتذة المشتركون في ندوة مركز دراسات الوحدة العربية وبالذات ما قاله الدكتورمحمود عبد الفضيل في : مجموعة مؤلفين ، **المصدر السابق** .

وبخصوص مشاكل البحث في حقول العلوم الاجتماعية المختلفة ، وبالذات في دول العالم الثالث ، انظر :

David E.Apter and Charles Andrain,«Comparative Government Developing New Nations, « **The Journal of Politics,** X X X (1968), PP. 304-7.

وبشأن الثغرات التي تعاني منها العلوم الاجتماعية بحكم طبيعتها ، انظر الدراسة الكلاسيكية التي وضعها ماكينزي :

W.J.M. Mackenzie, **Politics and Social Science** (Baltimore: Penguin Books, 1957) PP. 65-8 and 383.

وحول مناهج وطرائق البحث في علم السياسة في الخمسينات والستينات انظر تباعا :

R.Young (ed.), **Approaches to the Study of Politics** (Evanston, III.: Northwestern University Press, 1958); and J.C. Charlesworth (ed), **Contemprorary Political Analysis** (New york: The Free Press, 1967).

اما الدراسات اليسارية التي انتقدت مناهج البحث الغربية اللبرالية فمن ابرزها :

R.Blackburn **Ideology in Social Science** (New York: Vintage Books, 1973),Particularily the first 180 pages; Martin Shaw, **Marxism and Social Sciences** (London: Pluto Press, 1975), pp. 84-122; and finally in j.D. Coekcroft, A.G. Frank and D.Y.: Doubleday and Company, 1972), Particularily PP. 399-433.

(٤) الدكتورة زاهية قدورة ، « تقديم » في نجيب عازوري ، **يقظة الامة العربية** ، تعريب الدكتور احمد بو ملحم (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، تاريخ النشر غير مذكور) ، صفحة ٩ .

العديد من المنتديات ، ومن فوق العديد من المنابر السياسية والفكرية العربية القومية واليسارية والاسلامية النشطة في هذه المرحلة . وما ذلك بالامر المستغرب اذ ان « المشاكل التي كانت مطروحة (في مطلع القرن) ما تزال في اكثرها مطروحة اليوم تبحث عن حلول »(٥).

هذا ، وقد اشتمل ذلك الحوار والنقاش والصراع الساخن بين التيارات المختلفة(٦)، بل وحتى داخل التيار الفكري الواحد ، على موضوعين رئيسيين واسعين هما (٧) : الاسباب الحقيقية لتفسخ وانهيار وسقوط الامبراطورية العثمانية ؛ والاسباب الحقيقية لنشوء او بروز (٨)الحركات الاستقلالية الاسلامية والقومية العربية داخل الامبراطورية العثمانية .

ورغم ان ذلك الحوار والنقاش والصراع دار ، وما يزال يدور ، حول مختلف المسائل الاساسية والفرعية التي يشتمل عليها هذان الموضوعان العريضان ، ورغم اهمية المناقشة العلمية لمختلف هذه المسائل ، ستكون هذه الدراسة معنية بمسألة هامة واحدة فقط هي : مدى مسؤولية عامل ظهور الحركة القومية العربية ، مقارنة بالعوامل الاخرى ، في تفسخ وانهيار وسقوط الامبراطورية العثمانية . ذلك انه مامن مرة يجري الحديث فيها عن الامبراطورية العثمانية ، سواء في المنتديات والمنابر الاعلامية او غير الاعلامية المختلفة ، الا وتجد تباينا في التقويمات الراهنة للعديد من القضايا التاريخية المتصلة بتلك الامبراطورية . وفي هذا المجال ، فان قضية مسؤولية او عدم مسؤولية ظهور الحركة القومية العربية في سقوط الدولة العثمانية هي واحدة من هذه القضايا القديمة - الجديدة التي تنقسم حولها التيارات الايديولوجية والفكرية والسياسية المتنافسة في العالم العربي هذه الايام . وهنا ، لابد من الاشارة الى

---

(٥) **المصدر السابق** ، الصفحات ٩ - ١٠ .

(٦) من امثلة هذا الحوار بين الاكاديميين والاساتذة من اصحاب الاتجاهات المختلفة ، راجع الصفحات الخاصة بالامبراطورية العثمانية في ندوة مركز دراسات الوحدة كما نشرت في : مجموعة مؤلفين ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٥٢ - ٥٧ و ٦٣ - ٦٤ .

ومن بين امثلة كثيرة على الحوارات القائمة على قدم وساق بين القراء في الصحف الكويتية ، مثلا ، انظر احدثها نسبيا كما ظهرت في صحيفة **الوطن** تاريخ ٨ / ١٢ / ١٩٨٠ ، ص ١٥ و ١٦ / ١٢ / ١٩٨٠ ص ١٥ و ٢٣ / ١٢ / ١٩٨٠ ، ص ٧ ، وصحيفة **الانباء** ، تاريخ ٢٠ / ١٢ / ١٩٨٠ ، ص ١ ، وصحيفة **الوطن** ، تاريخ ٣٠ / ١٢ / ١٩٨٠ ، ص ١٨ ، وصحيفة **القبس** ، تاريخ ١٤ / ٢ / ١٩٨١ ، ص ٥ **والقبس** ، تاريخ ٢٠ / ٢ / ١٩٨١ ، ص ٥ .

(٧) هذا التبويب وما يندرج ضمنه من استنتاجات هو واحد من الخلاصات التي خرج بها المؤلف بعد ان انتهى من القراءات المكثفة الخاصة بهذا البحث . والقارىء المدقق للمراجع المختلفة ، التي ورد ذكرها حتى الان او تلك التي سيشار اليها لاحقا ، سيلاحظ تركيز هذه الدراسة او تلك على معالجة جانب (او اكثر) من هذين الموضوعين العريضين . بل ان ديفسون اشار منتقدا الى نزوع باحثين سابقين لتفسير كثير من الموضوعات بمنهج احادي التعليل . انظر :

Roderic H. Davison, **Reform in the Ottoman Empire: 1856-1876** (New York: Gordian Press, 1973), Particularily in P.6.

واذا كان لابد من ذكر بعض المراجع الايضاحية لهذه المسألة عند هذه النقطة الزمنية ، يمكن للقارىء مراجعة الحوار الذي دار في ندوة مركز الدراسات الوحدوية في بيروت : مجموعة مؤلفين **المصدر السابق** ، الصفحات ٢١ - ٨٣ . هذا علاوة على دراسة الدكتور زين نور الدين زين ، **نشوء القومية العربية** (بيروت : دار النهار للنشر ، ١٩٧٢) في الصفحات المختلفة وبالذات الفصلين الثاني والثالث ، علاوة على ما يورده الدكتور زين من انتقادات للدراسات السابقة وخلاصات ينتهي هو اليها في الفصل الاول . واخيرا ، من المفيد جدا - في هذا النطاق - مراجعة الدراسة القيمة التي وضعها الاستاذ طيباوي ورد فيها على كثير من الاستنتاجات التي خلص اليها باحثون اخرون . انظر .

A. L. Tibawi, **A Modern History of Syria** (London: Macmillan and Co, Ltd., 1969), Passim and P. 13 in Particular.

(٨) وهنا لابد من الاشارة الى ان المفكرين والكتاب يختلفون كثيرا حول تعريف وطبيعة القومية العربية . ففي حين يعتبرها البعض ظاهرة قديمة ودائمة ، يعتبرها اخرون ظاهرة حديثة وربما طارئة . ومن الامثلة على التيار الاول ، راجع : الدكتور منيف الرزاز ، **تطور معنى القومية** (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٣) ، ص ٢٤ . كذلك دراسة د . نور الدين حاطوم ، **محاضرات عن المراحل التاريخية للقومية العربية** (القاهرة : معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٦٣) ، ص ٥ . ومن الامثلة على التيار الثاني ، راجع دراسة زين ، **المصدر السابق** . ولعل في اختيار المؤلف للعنوان « نشوء القومية العربية » دليلا كافيا على كونه يعتبرها ظاهرة حديثة بدون جذور تاريخية .

ان اية محاولة متكاملة لقياس وزن عامل ظهور الحركة القومية العربية في عملية اندثار الامبراطورية العثمانية تقتضي استعراضا شاملا مزدوجا لكل من العامل اياه وللعملية ذاتها . غير ان مثل هذا الاستعراض هنا مستحيل اولا ، وغير مطلوب ثانيا . فهو مستحيل بحكم اعتبارات المساحة المتاحة لهذا البحث الموجز ،وهو غير مطلوب بحكم توفر دراسات عديدة سبق لها وان قامت بمعالجة الجوانب المختلفة لذلك العامل ولتلك العملية على نحو تفصيلي وشبه كامل . ولهذا ، سيكتفي البحث بتثبيت ابرز الوقائع والحقائق التاريخية الخاصة بالموضوع ومحاولة توظيفها ، بالتالي ، في قياس مسؤولية وثقل حركة القومية العربية بالميزان الخاص بسقوط السلطنة العثمانية .

غير ان وضع عامل ظهور الحركة القومية العربية في سياقه التاريخي ، واتاحة فرصة علمية لتقدير ثقله النسبي في ترجيح كفة اندثار الامبراطورية العثمانية ، يقتضي ـ في الجزء الاول من البحث ـ تثبيت الحقائق الخاصة بالعوامل التاريخية الداخلية والخارجية (السابقة لظهور القومية العربية) التي أضعفت وانهكت ،وربما أسهمت اكثر من غيرها ، في سقوط الامبراطورية العثمانية . كما انه لابد ـ في الجزء الثاني من البحث ـ من تثبيت وتفحص الحقائق الخاصة بمحاولات الانقاذ التي جرت قبل التاريخ الثابت لظهور الحركة القومية العربية وتقدير اثر تلك المحاولات في تقرير مستقبل الامبراطورية . ثم ان الحيثيات ذاتها تقتضي ـ في الجزء الثالث والاخير من البحث ـ تثبيت الحقائق الخاصة بأحداث نصف القرن الاخير من تاريخ الامبراطورية الذي شهد ، ضمن تطورات عديدة اخرى ، البدايات المبكرة للحركة القومية العربية وتقرير وزن تلك الاحداث والتطورات في رسم نهاية الامبراطورية العثمانية .

العوامل التاريخية في انهاك وتفسيخ الامبراطورية العثمانية

مما لاشك فيه ان عملية تفسخ وانهيار وسقوط الامبراطورية العثمانية هي عملية اكثر من ان يكون سبب واحد ، مهما بلغت اهميته ، مسؤولا عنها . ومما لاشك فيه ايضا ان تلك العملية اكبر من ان تقع فجأة وبدون مقدمات . وكادت المصادر العلمية الرصينة تجمع (ونقول كادت ، ولا نقول اجمعت ، فقط من باب اتقاء خطر التعميم ليس الا) على ان العوامل المسؤولة عن هدم واسقاط الامبراطورية كثيرة من الناحية العددية ، ومتراكمة متغيرة نوعيا مع مرور الزمن من الناحية الكيفية ، ومتفاوتة في منشئها « الجغرافي » وفي أثرها المادي (تبعا للمراحل المختلفة) من الناحية الفعلية . ولاغراض هذا البحث ، وانسجاما مع ما ذهب اليه مؤرخو الامبراطورية ، لتكن نقطة بدء نهاية الامبراطورية مع نهاية عهد السلطان سليمان القانوني (بعبارة اهل الشرق) وسليمان العظيم (بعبارة اهل الغرب)(٩).

(١) **العوامل الداخلية**: **تاريخيا**: شارف العصر الذهبي للامبراطورية العثمانية على النهاية مع وفاة السلطان سليمان(١٠). ذلك ان الاسس القانونية ـ السياسية ـ الاجتماعية للنظام الامبراطوري

---

(٩) حسب ما اورده فيليب حتي في دراسته ، **خمسة الاف سنة من تاريخ الشرق الادنى** ، المجلد الثاني (بيروت : الدار المتحدة للنشر ، ١٩٧٥) ص ١٢ .

(١٠) حول التفاصيل القانونية والسياسية والاجتماعية للنظام الامبراطوري العثماني في هذا العصر ، راجع المصادر التالية : زين ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٢٨ ، ٣٠ ـ ٣٥ و ٣٨ ـ ٤٠ . ايضا حتي ، **المصدر السابق** ، الصفحات ١٢ ، ١٦ ـ ١٨ . كذلك:
Walter F. Weiker, «The Ottoman Bureaucracy: Modernization and Reform (Newark, N.J.: Rutgers University, unpublished monograph), PP.5 and 7.; Tibawi, **Op. Cit.**, P. 23; and Davison, **Op. Cit.**, PP. 10-14; and finally consult Halil Inalik, »Turkey,» in R. E. Ward and D. A. Rustow (eds.), **Political Modernization in Japan and Turkey** (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1968), PP. 42-5.

الذي قاده السلطان سليمان اهتزت بقوة بعد وفاته . فعباءة هذا النظام المتحلق حول شخصية سلطان فذ ، كانت مفصلة لتلائم السلطان سليمان « والسلف القوي ». وما ان جاء « الخلف الضعيف » والفاسد ، حتى غدت العباءة فضفاضة ومترهلة وعرضة للتمزيق :

فالنظام السياسي العثماني ، بارتكازه على صيغة الوراثة من بين افراد العائلة الحاكمة ودون قواعد محددة سليمة ، فتح المجال امام مجيء شريط من الحكام الفاسدين خلقيا ، او المخبولين ، او الاطفال ، او المتفوقين في مجالات الدسائس والمؤامرات والسجن والقتل (١١). وفي هذه البيئة ، وبعد خراب الرأس ، بدأ انحطاط الاطراف . فلم يمض وقت طويل حتى فسدت القيادة السياسية والعسكرية والادارية والدينية الحاكمة (المتكونة من « طبقات مغلقة » اشتملت على « رجال الدين » وكبار المسؤولين الاداريين ، والعسكريين بما في ذلك قيادة الانكشارية ، والاعيان والوجهاء الاقطاعيين المتحلقين حول العائلة الحاكمة) سواء في الآستانة او في الولايات (١٢). وقد استنزف فساد هؤلاء الامكانات الفعلية ، بل والطاقات المستقبلية ، للامبراطورية على مختلف المستويات السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية . وكما هو متوقع في مثل هذه الاوضاع ، لعب الجناح الانكشاري للمؤسسة العسكرية الدور الاكثر اضرارا . فتضخم حجم هذا الجناح بعد اشتماله على ابناء المسلمين الاحرار بدأ من عهد مراد الرابع (حكم من ١٦٢٣ ـ ١٦٤٠) ، والسماح لاعضائه بممارسة التجارة وغيرها من اعمال ، وتدهور مستوى اعداده وانضباطه العسكري ، وفساده ، واحتكاره للقوة ، جعل ذلك الجناح العسكري يتحول من سلاح بيد النظام الى سلاح يعطل تطوره . وهكذا ، بدأت الانكشارية ، وحلفاؤها من الطبقات المختلفة في القيادة الحاكمة ، بممارسة كافة انواع التامر والتسلط والابتزاز ضد العائلة العثمانية ورعيتها المسلمة وغير المسلمة دون مراعاة للقوانين والاعراف الاسلامية (١٣).

وفي ظل غياب سلاطين اقوياء متنورين ، وانحطاط مستوى القيادة العسكرية والادارية والدينية ، انهار التوازن المجتمعي : فمن جهة اولى ، ومع الغاء نظام « فرسان المزارع » المكلفين بجمع الضرائب واستبداله بنظام « التلزيم » في نهاية القرن السادس عشر ومطلع القرن التالي ، تشكلت طبقة قوية من الأعيان . وسرعان ما اصبح هؤلاء باشوات ، او هم سيطروا على الباشوات والقضاة والمجالس المحلية عبر اساليب الرشوى والافساد . ثم من موقعهم الجديد المفعم بالسلطة السياسية ، مارس الاقطاعيون الجدد مختلف انواع الاستغلال الاقتصادي والسياسي والاجتماعي دون ان يخشوا لومة

---

(١١) المراجع التي تؤكد واقع العائلة الحاكمة ووراثة العرش كثيرة نذكر منها : حتي ، **المصدر السابق** ،ص ٢٠ . كذلك : نجيب عازوري ، **يقظة الامة العربية** ترجمة د . احمد بو ملحم (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، تاريخ النشر غير مذكور) الصفحات ١٨١ ـ ١٨٢ و ١٨٤ .

Weiker **Op.Cit,** P.12; and Davison, **Op, Cit.,** P.15.

(١٢) حول انتشار الفساد في كافة « المؤسسات » المحيطة بالسلطان ، راجع : حتي ، **المصدر السابق** ، الصفحات ١٩ و ٢١ . ايضا : الاستاذ البرت حوراني ، **الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٨٩ ـ ١٩٣٩** (بيروت : دار النهار للنشر ، ١٩٧٧) ، الصفحات ٥٢ ـ ٥٣ . ايضا : عازوري ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٢٠٥ ـ ٢٠٨ . كذلك :

Weiker, **Op. Cit.,** PP.7 and 12.; Davison, **Op. Cit.,** PP. 15 and finally consult Richard L. Chambers, «Turkey,» in Ward and Rustow (eds.), **Op. Cit.,** PP.303-4.

(١٣) ومن اجل امثلة محددة على التعسف ضد المسلمين وغير المسلمين انظر ،

Tibawi, **Op. Cit.,** PP: 121- 2.; Weiker, **Op. Cit., 7** and 26.; Davison, **PP, Cit,** P. 50.

كذلك : عازوري ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٢٠٨ ـ ٢٠٩ و ٢٢١ ..

لائم من ممثلي السلطة المركزية الذين اصبحوا ، عمليا ، حلفاء او تابعين لهم . وقد اغتنم الاعيان ظروف الامبراطورية الداخلية والخارجية فانتزعوا صلاحية بناء قواتهم العسكرية الخاصة . وبذلك ، تضاعفت قوة هؤلاء فاستقلوا بولاياتهم ومناطقهم وبدأوا يتصارعون على النفوذ والسلطة في المناطق المجاورة . بل أن بعضهم تحدى السلطة المركزية واستقل عنها ثم حاول الاستيلاء عليها ، بمساعدة حلفاء اخرين ، كما حدث في الانقلاب الشهير على السلطان سليم الثالث في العام ١٨٠٧ وقتله وتعيين سلطان جديد ينسجم مع طموحاتهم (١٤).

ومن جهة **ثانية** ، سمح التنظيم الاداري والاقتصادي العثماني ، الموروث عن النظامين البيزنطي والعربي، باللامركزية المفرطة التي اتاحت المجال (في ظل ضعف السلاطين واعوانهم) لاستقلال الولايات فعليا رغم الحفاظ على الشكل التابع . كما سمح ذلك التنظيم باستبداد حكام الولايات الفاسدين وبالذات في مجاليّ الضرائب المجحفة والتجنيد القسري . واخيرا ، أدى التنظيم الامبراطوري العثماني الى ابقاء الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في الاقاليم المختلفة ضمن نطاق البناء الاقطاعي القديم(١٥).

ومن جهة **ثالثة** ، تحول كل من « نظام الملل » و « نظام الامتيازات» التي منحهما السلطان في أوج قوته (بمحض ارادته وتكرما منه الى جاليات اجنبية تقيم في مملكته) (١٦) الى عامل هدم للامبراطورية . وكانت حقوق وواجبات جميع الرعايا والاجانب من غير المسلمين المقيمين في الامبراطورية قد انتظمت ضمن « نظام الملل » في البداية ، ثم ما لبثت حقوق الجاليات الاجنبية غير المسلمة ان انتظمت وفقا لقواعد « نظام الامتيازات » . وقد عنى « قانون الملة » الاعتراف بالطوائف الدينية غير الاسلامية وبرؤسائها وبقوانين احوالها الشخصية الخاصة بها . كما ان « قانون الامتيازات » عنى اعترافا من السلطان العثماني بالامتيازات والحصانات الاقتصادية والتجارية الخاصة بالرعايا الاجانب غير المسلمين ـ على النسق البيزنطي السابق ـ بل وبزيادة عليه لاعتبارات

---

(١٤) حول تعاظم قوة الاعيان ، وتحالفاتهم ، وممارساتهم التسلطية ضد السلطة المركزية وفي مناطقهم ، ومقاومتهم لمحاولات الحد من سلطاتهم ، انظر : حوراني ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٤٥ ـ ٤٦ و ٥٢ . كذلك :

Weiker, **Op.Cit,** PP.4,7-8 and 28; Davison, **Op, Cit,** PP. 15-18 and 24-7; Tibawi, **Op. Cit,** P. 110; and Inalcik, «Turkey» in Ward and Rustow (ed.), **Reform in Syria and Palestine: 1840 - 1861** (Oxford: Oxford University Press, 1968), PP. 25-6.

(١٥) حول هذا الموضوع يمكن الاستزادة من المصادر التالية : فردريك هرتز ، **القومية في التاريخ والسياسة** ، ترجمة عبد الكريم احمد ومراجعة الدكتور ابراهيم صقر (القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، غير مذكور) ، الصفحات ١٦٥ ـ ١٦٧ ايضا في دراسة الدكتور اميل توما ، **الحركات الاجتماعية في الاسلام** (بيروت : دار الفارابي ، ١٩٨٠) الصفحات ١٥١ ـ ١٥٢ . كذلك في كتاب الدكتور سمير امين ، **الامة العربية : القومية وصراع الطبقات** ، تركمة كميل قيصر داغر (بيروت : دار ابن رشد للطباعة والنشر ، ١٩٧٨) ، الصفحات ٦٥ ـ ٦٦ . وايضا في : حتي **المصدر السابق** ، الصفحات ١٨ و ٢١ ـ ٢٢ . كذلك راجع :

Tibaw; **Op. Cit.,** P. 23..

(١٦) الاقتباس ماخوذ من دراسة حتي ، **المصدر السابق** ، ص ١٧ . كما يتاكد ذلك بعبارات مختلفة مشابهة في كتاب هرتز ، **المصدر السابق** ، ص ١٦٦ .

تتعلق بتطوير الاقتصاد الامبراطوري العثماني (١٧). وكان لهؤلاء ايضا استقلالهم الطائفي على نحو مماثل لقانون الملة بحيث لم يخضعوا للمحاكم العثمانية وانما للمحاكم القنصلية تبعا للانتماءات السياسية .
وقد ادى كل ذلك ، وبخاصة في ظل غياب السلطة المركزية القوية ، وفي ظل انطباق مفهومي « الملة » و « الدين » على مفهومي « الشعب » و « الامة » وفي ظل التدخلات الخارجية الى زيادة تفكيك الامبراطورية . فهذان النظامان جعلا « السلطنة العثمانية وكانها مكونة من مجموعة من الطوائف المستقلة استقلالا ذاتيا » (١٨). كما انهما اصبحا عائقا « ضد الوحدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في البلاد »، ونوعا من « الحقوق التقليدية التي مهدت السبيل للدول الاجنبية للتدخل في شؤون ... (الامبراطورية) الداخلية » (١٩).

ومن جهة **رابعة** ، ادى فساد السلطة المركزية وضعفها الى (١) تحديها والاستقلال (او محاولة الاستقلال) عنها ، او الى (٢) محاولة الهيمنة عليها بشكل مكشوف من قبل تحالف مراكز القوى القديمة (الانكشارية ، رجال الدين ... الخ) والقوى الجديدة (الاعيان بمختلف اصولهم الاجتماعية ، والحركات الدينية الاسلامية) على غرار الانقلاب الذي وقع ضد السلطان سليم الثالث في العام ١٨٠٧ . وقد تعددت الحركات الاستقلالية وتنوعت سواء من حيث موقعها الجغرافي او من حيث هويتها . فمن الناحية الجغرافية ، ظهرت الحركات الانفصالية في مختلف ارجاء الامبراطورية الاوربية والاسيوية والافريقية . ومن ناجية الهوية ، اتخذت هذه الحركات واحدا من ثلاثة انواع . فهو اما نوع نابع من الطموح الشخصي او العائلي ، او صادر عن موقف ديني سلفي ،أو متأت عن التمايز القومي بكل ما رفده من دعم اوربي خارجي . ومن الامثلة الابرز على النوع الشخصي في المنطقة العربية صعود احمد باشا (المشهور بالجزار) مع نهاية القرن الثامن عشر . وقد سيطر الجزار تماما على ولايتي صيدا ودمشق وامتد نفوذه احيانا شمالا حتى طرابلس واحيانا جنوبا حتى الحدود المصرية . وكان احمد باشا قد تحدى الحكومة المركزية اكثر من مرة ونجح في اجبارها على الاعتراف به وبسلطته في مناطق سيطرته ونفوذه . كما حاول اكثر من زعيم ، سواء في حياة الجزار او عقب وفاته في العام ١٨٠٤ الاستئثار بالسلطة في مناطقهم . ومن الامثلة على هؤلاء مصطفى آغا بربر في طرابلس ، ومحمد ابو مرق ومحمد آغا ابو نبوت في يافا ، وآل جرار في نابلس .وقد فشل هؤلاء جميعا في تحقيق ماربهم بعد هزائمهم الدموية على أيدي الجزار او الحكومة المركزية . غير ان ذلك الفشل لم يمنع اخرين من القيام بمحاولات جديدة وناجحة . فقد استطاع محمد علي باشا الاستقلال بمصر بدءاً من ١٨٠٥ ، والمباشرة باحتلال سورية عام ١٨٣٠ ، وتهديد العاصمة العثمانية ذاتها في العام ١٨٣٩ . وعندما ردت الدول الاوروبية جيوشه عن العاصمة وأجبرت ابراهيم باشا على الانسحاب من سورية في العام ١٨٤١ ، نجح محمد علي – مقابل ذلك – بالحصول على استقلاله الفعلي في ولاية مصر التي اصبح حكمها وراثيا في عائلته .
ومن الامثلة الابرز على النوع الديني من الحركات في المنطقة العربية ، ظهور الحركة الوهابية بدءاً من

---

(١٧) الا اذا اشير الى غير ذلك بمصادر اخرى محددة ، المعلومات عن نظامي الملة والامتيازات والمقاومة التي ابداها زعماء الطوائف دفاعا عن نظام الملة مستقاة من المصادر التالية زين ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٣٢ – ٣٥ و ٣٨ – ٤٠ . ايضا حتي ، **المصدر السابق** ، الصفحات ١٧ – ١٨ و ٢٥ – ٢٦ . كذلك في :

Tibawi; **Op. Cit.,** P. 23.

Davison, **Op. Cit.,** PP. 13-14 and 43; **Op. Cit, PP.** 26-27; Ma oz, **Op. Cit.,** PP. 201-5; Tibawi, **Op. Cit.,** PP. 118-120 and 122-33. and in R.R. Palmer, **A History of the Modern World** N(New York; Alfred A. Knopf, 1963), PP. 629-30.

(١٨) حتي ، **المصدر السابق** ، ص ١٧ .

(١٩) **المصدر ذاته** .

العام ١٧٤٤ . وقد استطاعت هذه الحركة ، بتحالفها مع عائلة ال سعود في نجد ، احتلال مكة المكرمة مرتين ، كانت الثانية منهما في العام ١٨٠٦ . وعندئذ ، اعلن الوهابيون استقلالهم عن السلطان سليم الثالث واعتبروه فاسدا وضالا وغير مؤتمن على الدين الاسلامي . بل أن الوهابيين تجاوزوا بنشاطهم حدود الجزيرة العربية وهاجموا سهول حوران والبصرة ودمروا كربلاء. وقد فشل السلطان اكثر من مرة في القضاء على حركتهم حتى نجح في ذلك محمد على باشا ، موفدا من السلطان ، مع العام ١٨١٧ . واخيرا ، من الامثلة الابرز على النوع الثالث من الحركات ، القوى القومية في اليونان ونجاحها في تحقيق استقلالها (او انفصالها)، والتمردات او الانتفاضات القومية المتصلة في البلقان .وغني عن الذكر ، ان هذه الحركات ـ الناجحة منها والفاشلة ـ كالت للسلطة المركزية ، بل وللامبراطورية باسرها ، ضربات عنيفة نجحت في ضعضعة قدراتها وزعزعة برامجها واهدار الكثير من هيبتها وشرعيتها (٢٠)

(٢) **العوامل الخارجية : تاريخياً** : لم تقم الامبراطورية العثمانية وسط فراغ . ولا هي كانت بقادرة ، رغم مساعي العزل الداخلي التي مارستها قياداتها التقليدية ، على الانعزال عن البيئة الخارجية المحيطة بها والفاعلة فيها .واذا كانت تلك البيئة قد منحت السلطة بعض الاوكسجين اللازم لها في بعض الاحيان (المسالة الشرقية في مختلف مراحلها ودور الخلاف الاوروبي في الحفاظ على الامبراطورية) (٢١) فان البيئة ذاتها هي التي حجبت عن السلطنة مالزمها من الاوكسجين الضروري لها في احيان اخرى (التدخلات الاقتصادية والسياسية والعسكرية ودعم الحركات الانفصالية بمختلف اشكالها في حالات عديدة) (٢٢).

وتماما مثلما أغرى الانحطاط الداخلي القوى المحلية الطامحة بالاستيلاء على السلطة او اجزاء منها ، اغرى الانحطاط ذاته القوى الخارجية الطامحة بالتدخل المباشر وغير المباشر لالتهام كل او بعض

---

(٢٠) اعتمدت الدراسة في معلوماتها عن الحركات الانفصالية او الاستقلالية او التصحيحية في الامبراطورية العثمانية في هذه الفترة على مصادر عديدة نذكر منها : الدكتور محمد جابر الانصاري ، **تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي ١٩٣٠ ـ ١٩٧٠** (الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب ، ١٩٨٠) ص ٧ . كذلك : حوراني ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٥٦ ، ٦٤ ، ٨١ ـ ٨٤ و ٣١٢ ـ ٣١٣ . ايضا : زين ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٤٤ ـ ٤٦ . كذلك : الدكتور ادوارد عطية ، **العرب**، ترجمة عبد اللطيف شرارة (بيروت : مكتبة لبنان ، ١٩٧٢) ، الصفحات ٩٦ و ٩٨ . ايضا في :

Inalcik,«Turkey»in Ward and Rustow (eds.), **Op. Cit.**, P. 54; Tibawi, **Op. Cit.**, PP. 41-45; and Davison. **Op. Cit.**, P. 24.

(٢١) المصادر حول المسالة الشرقية في مراحلها المختلفة كثيرة نذكر منها : حتي ، **المصدر السابق** الصفحات ١٩ ، ٢٢ ـ ٢٤ و ٢٨ . كذلك في :

Palmer, **Op. Cit.**, PP.511-2 and 627-35; and Davison, **Op. Cit.**, P.5.

(٢٢) ومن المصادر العديدة التي تؤكد تدخلات ودور الدول الاوروبية في اضعاف الامبراطورية العثمانية وقطع الطريق على تطورها نذكر توما ، **المصدر السابق** ، الصفحات ١٧٤ و ١٧٦ ـ ١٧٧ . ايضا : هرتز ، **المصدر السابق** ، الصفحات ١٣٣ و ١٦٦ ـ ١٦٧ . كذلك : ج . م . ن جفريز ، **فلسطين : اليكم الحقيقة** ، ترجمة احمد خليل الحاج (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، الجزء الاول ، ١٩٧١) ، ص ١٠١ ايضا : عازوري ، **المصدر السابق** ، الصفحات ١٩٠ ـ ١٩٤ . كذلك ، راجع :

S. H. Longrigg, **Syria and Lebanon under French Mandate** (New York: Royal institute of International Affairs, 1958), PP. 15, 22 and 38-44.; Davison, **Op. Cit.**, P. 9.; Tibawi, **Op. Cit.**, P. 30; Weiker, **Op. Cit.**, P. 3.

« الكعكة العثمانية ». ولم يكن الضعف العثماني عامل الاغراء الوحيد . ذلك ان اعتبارات الصراع التاريخي الذي رافق نشوء وتوسع الامبراطورية ، بابعاده السياسية والعسكرية والدينية ، كانت ماتزال تفعل فعلها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . كذلك ، كان واقع الدول القومية الاوروبية الجديدة المتقدمة علميا وصناعيا ورأسماليا وسياسيا وفكريا وثقافيا ، كافيا لاغرائها بالتحرك التوسعي على حساب الكيانات الضعيفة المجاورة . تلك الكيانات التي لم تدخل بعد عصور انتصار الانسانية والعقل (٢٣) او عصر الثورات التجارية والصناعية والزراعية ولم تحصد ، بالتالي ، ايا من ثمارها . وباختصار ، لقد تضاعف احساس الغرب الاوروبي بتفوقه بحكم وقوعه على تخوم واقع قديم متخلف كان بمثابة الفراغ الذي يغري الاخرين بملئه . وهكذا تفاعلت الاوضاع الخارجية مع الاوضاع الداخلية على نحو جدلي أدى ، في النهاية ، الى تعميق الازمة الداخلية وزيادة شراسة الهجمة الخارجية .

بدا تداخل الازمتين الداخلية والخارجية على نحو مبكر جدا اثر فشل القوات العثمانية في حصارها الاول لفينا في العام ١٥٢٩ . ورغم ان ذلك لم يمنع تلك القوات من التوسع في مناطق اخرى ، فان بداية التأزم جاءت مع الفشل الثاني في حصار فينا في العام ١٦٨٣ وما أعقبه من انفصال هنغارية وتوقيع « معاهدة كارلووتز » المذلة في العام ١٦٩٩ . ومنذئذ ، تتابعت اعمال تقطيع أوصال الامبراطورية اما نتيجة مبادرات الدول الاوروبية لاحتلال مناطق « عثمانية »، او بفعل دعمها لحركات الاستقلال في الاقاليم « العثمانية » أو نتيجة الحروب المتصلة . ويكفي في هذا الصدد الاشارة الى ان الامبراطورية منيت بأربع هزائم عسكرية كبيرة في القرن الثامن عشر (١٧١٨ ، ١٧٧٤ ، ١٧٩٢ ، ١٧٩٩) وثلاث هزائم بارزة في القرن التاسع عشر (١٨١٢ ، ١٨٢٩ ، ١٨٧٨) وقد شكلت هذه الحروب الخارجية ، وما تخللها من حروب وحركات انفصالية واستقلالية داخلية ، الخط البياني للمنحدر التاريخي الخاص بالتآكل الاقليمي الذي تزحلقت عليه الامبراطورية منذ معاهدة كارلووتز الموقعة في العام الاخير من القرن السابع عشر (٢٤) .

نجم عن تشابكات البيئة الخارجية بالبيئة الداخلية للامبراطورية العثمانية جملة نتائج هامة موجزها ما يلي : من جهة **اولى** ، جرى تكريس ما اصطلح على تسميته بالمسألة الشرقية « التي كانت في

---

(٢٣) حول تقدم اوروبة وتخلف الامبراطورية العثمانية ، راجع حتي ، **المصدر السابق** ، ص ١٩ . ايضا : توما ، **المصدر السابق** ، ص ١٥٢ . كذلك :

Palmer, **Op. Cit.**, PP. 627-8.; Davison, **Op. Cit., P. 15.**

وحول نشوء وقوة الدول القومية في اوروبة والغرب عموما ، راجع دراسة بالمر السابقة الذكر على النحو التالي : حول توحيد ايطاليا ، الصفحات ٥١٣ ، ٥١٦ ـ ٥١٧ . وتوحيد المانيا ، الصفحات ٥٢٠ ـ ٥٢٣ و ٥٢٧ . وحول قيام الامبراطورية النمساوية ـ الهنغارية ، الصفحات ٥٣١ ـ ٥٣٣ . وحول التحديث في روسية القيصرية ، الصفحات ٥٣٤ ـ ٥٣٩ . وفيما يتعلق بتوطيد المركزية في الولايات المتحدة ، الصفحات ٥٣٩ ـ ٥٤٥ . وحول تاسيس الدومنيون الكندي ، الصفحات ٥٤٥ ـ ٥٤٨ .

(٢٤) حول الهزائم العسكرية للامبراطورية وتقطيع اوصالها ، راجع : حتي ، **المصادر السابق** ، الصفحات ٢٢ ـ ٢٤ . ايضا : حوراني ، **المصدر السابق** ، ص ٥٧ . كذلك : عازوري ، **المصدر السابق** ، صفحة ١٩٨ . ايضا :

Davison, **Reform in the Ottoman Empire,** PP.5 and 14; and R. Davison, «Turkey», in Ward and Rustow (eds.), **Op. Cit., PP. 93-4; Maoz, Op. Cit.,** PP. 11, 210-18.

الواقع مسألة غربية تتناول الخلافات التي وقعت بين دول اوروبة المتحاسدة » (٢٥) . ورغم انه كان لهذه « المسألة » نتائج عدة ، فان اهمها على الاطلاق ـ في نطاق ما نحن بصدده ـ انها اطالت عمر الامبراطورية العثمانية . فقوات روسية القيصرية التي شنت ست حروب ضد الامبراطورية في قرن واحد ماكان من عائق امام زحفها ودخول الاستانة سوى الدول الاوروبية الاخرى (بريطانية وفرنسة أساساً) المنافسة لها .وقد تبدى ذلك ، على او ضح ما يكون في حربي ١٨٥٤ / ١٨٥٦ و ١٨٧٦/ ١٨٧٨ . وكانت الدول الاوروبية الكبرى قد بادرت الى تطويق امكانية الاقتتال فيما بينها بعقد « مؤتمر برلين » في العام ١٨٧٨ . غير ان نتائج ذلك المؤتمر ، رغم حفاظها على الكيان العثماني وعلى السلام الاوروبي ، لم ترض لا القوميين البلقانيين او الروس السلافيين ، ولا السلطان العثماني او معارضيه من « الشبان الاتراك » ولاهي ـ بالمحصلة ـ اوقفت شهية مختلف الدول الاوروبية الاستعمارية المفتوحة على اراضي الامبراطورية (٢٦).

ومن جهة **ثانية**، ادى تفاعل البيئتين الداخلية والخارجية للامبراطورية العثمانية الى نهش متواصل لاقاليم السلطنة . وحتى سقوط نابليون في العام ١٨١٥ ، ذهبت « حصة الاسد » من اراضي السلطنة المقتطعة الى كل من النمسة وروسية القيصرية . وبعد ذلك ، ومع ظهور الفكرة القومية وترسخها ، حصلت بعض المناطق العثمانية الاوروبية على استقلالها الذاتي او الكامل تبعا لحالة التوازن بين الدول الاوروبية الكبرى . كما سقطت لاحقا بعض المناطق العربية بأيدي الاستعمار الاوروبي ، على نحو مباشر او غير مباشر ، سواء في شمال افريقية ، أو في الخليج العربي ، أو في أطراف الجزيرة العربية (٢٧) .

ومن جهة **ثالثة**، أوقعت الثورة الصناعية الاوروبية ،بطوريها الاول والثاني ، الامبراطورية العثمانية ـ كما غيرها من المناطق خارج العالم الغربي ـ في مستنقع الشبكة الاقتصادية الرأسمالية الغربية الصاعدة . وقد أدى ذلك الى تفاقم الازمة الاقتصادية العثمانية الناجمة اصلا عن ضعف البناء الاقطاعي للامبراطورية في وجه المد الرأسمالي الاوروبي المستفيد من التكنولوجيا الجديدة في مجالات الاكتشافات الجغرافية والعلمية والزراعية والصناعية (٢٨) .

ومن جهة **رابعة**، فاقمت المرحلة الثانية من الاستعمار الاوروبي حالة التردي في الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في الامبراطورية بضرب الصناعات الحرفية اليدوية عبر غزو الاسواق العثمانية واغراقها بالبضائع الاوروبية المنافسة اسعارا والمتفوقة نوعيا . كما أن متطلبات

---

(٢٥) النص مقتبس من : حتي ، **المصدر السابق** ، ص ٢٣ .
(٢٦) حول هذا كله ، راجع مصادر الحاشية (٢١) .
(٢٧) راجع مصادر الحاشية (٢٤) . كذلك حوراني ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٨١ ـ ٨٦ .
(٢٨) حول الثورة الصناعية ، في طوريها الاول والثاني ، راجع :

Palmer . **OP. Cit** . PP. 422 . and 569 — 73.

وحول الاكتشافات الجغرافية وتطور طرق المواصلات واثرها ، انظر امين ، **المصدر السابق**، الصفحات ٦٥ ـ ٦٦ .
ايضا : حوراني ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٥٣ ـ ٥٤ .

الاستعمار الاوروبي الجديد ، عمقت الازمة السياسية والاقتصادية الداخلية في الامبراطورية عندما اقتطعت اجزاء مهمة من كيانها (٢٩) .

ومن جهة **خامسة** ، وأخيرة ، ادى تفاعل البيئتين الداخلية والخارجية في الامبراطورية العثمانية الى تعزيز علاقات القوى والجاليات غير المسلمة داخل السلطنة مع دول اوروبة ، والى نمو امتيازاتها الاقتصادية ، ووعيها القومي ، وحركتها الاستقلالية الانفصالية وبالذات في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ثم ان ذلك التفاعل ادى ـ على نحو معاكس ـ الى افقاد السلطة المركزية العثمانية تدريجيا الكثير من شرعيتها بين الرعايا المسلمين بسبب عجزها او خضوعها للتدخلات الاوروبية . وقد كان فقدان الشرعية ذاك عاملا أساسيا في كثير من النشاطات اللاحقة المناهضة للسلطة العثمانية او الهادفة الى الخروج عن طاعتها وسلطتها والتي قامت بها شعوب وقوى اسلامية عربية (٣٠) .

محاولات الانقاذ والمحصلة النهائية

كان امرا طبيعيا ومتوقعاً ، في ظل مرور الامبراطورية العثمانية في الدهاليز الخانقة لازمتيها الداخلية والخارجية ، ان تبرز محاولات للاصلاح . بل أن مثل هذه المحاولات تتابعت منذ البداية المبكرة للازمتين ، على امل تجاوزهما . ويمكن ، في هذا المجال ، رصد سبع محاولات كبرى قام بها بعض السلاطين ، او بعض قيادات الدولة الاخرين ، اوبعض رعايا الامبراطورية البارزين :

(١) **محاولات الانقاذ**: جاءت اولى محاولات الاصلاح منذ اللحظة التي لاحت فيها المؤشرات الأكيدة على ضعف الامبراطورية ووهنها .وكان اوضح هذه المؤشرات العجز العسكري الذي تبدى في فشل الحصار الثاني لفينا في العام ١٦٨٣ وما اعقبه من هوان سياسي في معاهدة كارلووتز المذلة . وهنا بادر اكثر من رئيس للوزراء (من ال كوبولو تخصيصا) لتخطي الازمة الداخلية (أساسا) دون اي نجاح يذكر . بل أن سنوات القرن التالي شهدت ازدياد بلل طين « الازمة الداخلية » بالبلل الذي جاءت به « الازمة الخارجية » (٣١) .

قاد السلطان سليم الثالث (حكم من ١٧٨٩ ـ ١٨٠٧) محاولة رئيسية ثانية لتجاوز الازمتين بالشروع بمعالجة مشاكل السلطة الداخلية . غير ان المقاومة العنيفة التي جوبه بها السلطان من مراكز

---

(٢٩) حول اثر الاستعمار على الاقتصاد في العالم غير العربي ومن ضمنه الامبراطورية العثمانية ، انظر : حتي ، **المصدر السابق** ،ص ٤٤ . ايضا : امين ، **المصدر السابق** ، ص ٦٦ .

Palmer, **Op. Cit.,** PP. PP. 615-9 and 622.; Longrigg, **OP. Cit**., PP. 31-5; Ma'oz, **Op. Cit., PP. 173 and 176-9.** Tibawi, **Op. Cit.,** PP.2, 13, and 16; Weiker, **Op. Cit,** P. 26.;

(٣٠) حول هذا كله ، انظر المصادر الواردة في الحاشية رقم (٢٠) علاوة على :
د. مورو بيرجر ، **العالم العربي اليوم** ، ترجمة محي الدين محمد (بيروت ،دارمجلة شعر ، ١٩٦٣) ، ص ٢٧٥ . حوراني ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٥٧ ـ ٥٨ و ٧٦ ـ ٧٧ . كذلك

Ma'oz, **Op. Cit.,** PP. 11, 182, 187-8 193- 4, 210- 13.

(٣١) من المصادر التي تعرضت لظروف وحيثيات محاولة الاصلاح المبكر الاولى ، نذكر التالية : حتي ، **المصدر السابق** ، الصفحات ١٩ ـ ٢٤ . ايضا : حوراني ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٥١ ـ ٥٢ . كذلك :
Weiker , OP . Cit ., P . 3 .

القوى التقليدية (العسكرية ، والدينية ، والسياسية ـ الادارية ، والاقتصادية) لم تجهز على محاولته الاصلاحية فحسب ، بل اجهزت على حكمه وعليه ايضا (٣٢) .

اما محاولة الاصلاح الكبيرة **الثالثة** فكانت في عهد السلطان محمود الثاني الذي حكم الامبراطورية في الفترة ما بين ١٨٠٨ ـ ١٨٣٩ . وهنا ، نجح هذا السلطان ، باسلوب حذر تدرجي ، في هدم معاقل بعض القوى التقليدية (الانكشارية) على نحو كامل وفي كسر شوكة معاقل قوى اخرى (مؤسسة رجال الدين ، ومراكز قوى الزعامات والقيادات المحلية في بعض الاقاليم) . كما ان السلطان محمود الثاني ، أرسى باسلوب التحديث (أو التغريب) « من فوق » قواعد ضرورية للاصلاح القادم كان ابرزها تنميته لقوة وهيبة ـ ولاحقا دكتاتورية ـ السلطة المركزية نسبيا . غير أن جهوده الاصلاحية هذه ، أثارت عليه التيارات التقليدية و « مراكز القوى » المحلية سواء في المركز أو في الولايات . بل أن جهوده جوبهت بنقمة شبيهة بالنقمة التي أثارتها جهود بطرس الكبير الاصلاحية في روسية القيصرية . وفي المحصلة ، أدت محاولاته لتعزيز قوة وهيبة سلطة المركز الى ضرب جيشه الجديد ، والى فقدانه المؤقت لسورية ، وفقدانه النهائي اللاحق لولاية مصر ، وتسريع بروز « الازمة الخارجية » . وقد حدث التطور الاخير هذا ، عبر تعزيز وجود ونفوذ القوى الاوروبية في الامبراطورية العثمانية . وقد بادرت هذه القوى الى انجاز مصالحها اولا ، ومصالح خليفته السلطان عبد المجيد ثانيا ، باجبار جيوش محمد علي باشا وابنه ابراهيم على الانسحاب من سورية والارتداد الى مصر في العام ١٨٤١ . وكان السلطان عبد المجيد (حكم ١٨٣٩ ـ ١٨٦١) قد اعتلى العرش اثر وفاة سلفه الذي عاجله الموت قبل ان يعلم بهزيمة جيوشه على أيدي قوات ابراهيم باشا (٣٣) .

وفي عهد السلطان عبد المجيد ، كانت المحاولة الكبرى **الرابعة** للاصلاح . وهنا ، لعب رشيد باشا ، وزير الخارجية والصدر الاعظم لاحقا ، الدور الرئيسي في التخلص من التهديد « الداخلي » لمحمدعلي باشا برافعة التدخل « الخارجي » ممثلا في الدول الاوروبية . ولاغراء هذه الدول على « التدخل » من اجل اجبار قوات ابراهيم باشا على النكوص عن العاصمة العثمانية التي هددتها جيوشه ، بل وللانسحاب من سورية بكاملها ، أقنع رشيد باشا السلطان بالاسراع ببدء ما اشتهر لاحقا باسم « عهد التنظيمات »(٣٤). وقد تمذلك عبر الاعلان عن البرنامج الاصلاحي المعروف بفرمان

---

(٣٢) رغم ان مصادر عديدة عالجت جهود سليم الثالث للاصلاح وما نتج عنها من مقاومة ونتائج فان ذكر بعضها كاف في هذا المجال : راجع :

Inalcik, «Turkey», in Ward and Rustow (eds.), **Op. Cit.,** PP. 43-9 and 49-53 Davison, **op. Cit.,** PP, 23-4.

كذلك : حتي ، **المصدر السابق** ، ص ٢٤ .

(٣٣) وقد اوردت مصادر عدة تفاصيل المحاولة الاصلاحية التي قادها السلطان محمود الثاني ، ودوافعها ، وظروفها ، ونتائجها . ومن هذه المصادر :

حتي ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٢٤ ـ ٢٥ . ايضا الدكتور باسل الكبيسي ، **حركة القوميين العرب** (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٤) الصفحات ٢٢ ـ ٢٣ .

Weiker, **Op. Cit.,** PP.3-4, 8-9 and 28; Davison, **Op. Cit.,** PP.6-7 and 25-34; Inalcik, «Turkey», in Ward and Rustow (eds.), **Op.Cit.,** PP. 54; and Palmer, **Op. Cit.,** P.454.

(٣٤) حول الاختلافات بخصوص مدة واسم وجوهر التنظيمات ، راجع : الكبيسي ، **المصدر السابق** ، ص ٢٢ . ايضا :

Davison, **Op. Cit.,** P.5; Weiker, **Op. Cit.,** PP.1 and 4; and Tibawi, **Op. Cit,,** P. 168.

« الخط الشريف للعام ١٨٣٩» . وفي هذا المجال ، لم يكن « اغراء » الدول الاوروبية الحافز الوحيد لمبادرة رشيد باشا . فقد اغتنم هذا الاخير ، نتيجة ايمانه بالاصلاح وبضرورته للامبراطورية ، فرصة الازمة العسكرية ـ السياسية لتمرير اصلاح لبرالي في وقت جعلت فيه الظروف مقاومة المحافظين التقليديين ضعيفة . غير ان المقاومة سرعان ما استجمعت قواها .ولم يمض وقت طويل ، حتى نجحت جهود مراكز قوى رجال الدين ، والسياسيين ـ الاداريين ، والاعيان والآغوات ، وجامعي الضرائب ، وزعماء الطوائف المسيحية (الذين هدد الاصلاح سيطرتهم على رعاياهم) ، وجمهور من المواطنين العاديين ايضا ، في وضع معظم بنود « الخط الشريف » في الادراج الرسمية . ومع ذلك ، ارسى الاعلان عن ذلك الاصلاح ، وماتبعه من تنفيذ لبعض وعوده ، الاساس اللازم لاصلاح قادم ، وتماما مثلما هو كرّس انقساما سياسيا دام اكثر من نصف قرن بين انصار التغريب العلمانيين اساسا ، وانصار التقليد المحافظين . وقد ادى هذا الصراع الى سقوط رشيد باشا من مركز السلطة وصعوده اليها مجددا ست مرات متلاحقة طوال ما يزيد قليلا عن ربع قرن (٣٥).

وفي نهاية هذه الفترة ، جاءت المحاولة الكبرى **الخامسة** للاصلاح . وكان مهندسا هذه المحاولة ، المعروفة بفرمان « خط همايون » للعام ١٨٥٦ ، هما تلميذا رشيد باشا ـ المصلحان علي باشا وفؤاد باشا . وعلى عكس ماحدث في المحاولة السابقة ، كان إملاء الدول الاوروبية وبصماتها واضحة على وثيقة « خط همايون » . ذلك ان الاعلان عنها جاء عشية « مؤتمر باريس » للسلام وكان بمثابة ثمن لاحق للتدخل « الخارجي » الاوروبي الذي انقذ الامبراطورية من هزيمة محققة امام روسية القيصرية في حرب القرم ١٨٥٣ / ١٨٥٥ . ومجددا ، اثار الاصلاح الجديد ـ بتاكيده على وعود « **الخط الشريف** » وبضمانه المعتقد والعبادة لجميع الطوائف وفتح المجال امام غير المسلمين للعمل في الخدمة المدنية والجيش ضمن امور اخرى ـ اثار زوبعة جديدة من الارادات المتصارعة (٣٦) . وبالمحصلة ، بقيت تلك الاصلاحات ، رغم بعض الانجازات المهمة « حبراً على ورق، لانها استبقت الزمن ولانها كانت تعوزها اداة التنفيذ . فقد قاومها بشدة علماء الدين المحافظون على حرفية الشرع الاسلامي، كما ان الاجانب الذين كانوا يتمتعون بامتيازات خاصة راحوا هم ايضا يعارضونها . وكان اليهود والنصارى الذين يعملون صيارفة يعارضون اسلوب جمع الضرائب ، ولم يكن الشباب المسيحي واليهودي الذين هم في سن الخدمة العسكرية ليرضوا عن قوانين الخدمة العسكرية الجديدة »(٣٧) .

---

(٣٥) جميع المعلومات الواردة عن الاصلاح الذي تم في عهد السلطان عبد المجيد مستخلصة من المصادر التالية : حتي ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٢٥ ـ ٢٦ . كذلك :

Weiker, **Op.Cit.**, PP.4 and 23 -4 and 26; Inalcik, «Turkey» in Ward and Rustow (eds.) **Op.Cit.**, PP. 53-63; Davison, «Turkey», in Ward and Rustow (eds.) **Op.Cit.**, PP. 97-98; Tibawi, **Op.Cit.**, PP. 114-8; Ma'oz, **Op.Cit.**, PP.24-6; Davison, **Reform in the Ottoman Empire, PP 3-4 and 36-50; and in Palmer, Op.Cit.**, PP.511-and 629.

(٣٦) انظر مصادر الحاشية السابقة .

(٣٧) النص مقتبس من حتي ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٢٥ ـ ٢٦ . وحول شرح خاص للاطراف التي قاومت اصلاحات الخط الشريف وخط هو مايون ، وماواكب هذه الاصلاحات من ردود فعل اخرى ، انظر :

Weiker, Op. Cit., PP. 26-7; Ma'oz, **Op.Cit.**, pp.201-4; Tibawi, **Op.Cit, PP.629-30; and in Davison, Reform in the Ottoman Empire,** PP. 50-1.

ورغم ان المحاولة الكبرى **السادسة** للاصلاح كانت بقيادة مدحت باشا ، الا انها استندت ، في زخمها ، على جيل جديد من المحدثين الاداريين والمفكرين والصحفيين والسياسيين . وقد ترعرع هؤلاء (« العثمانيون المحدثون » او « العثمانيون الشبان » او « الانتلجنسيا البيروقراطية ») (٣٨) في حقبة اللبرالية التي أشاعها المصلحان فؤاد باشا وعلي باشا . بل ان رجال هذا الجيل سرعان ما تجاوزوا ، بقيادة مدحت باشا ، تلك المرحلة ورموزها وبداوا يطالبون باصلاحات دستورية واسعة . وقد نجح هؤلاء ـ في ظل تردي الاوضاع المالية والعسكرية للامبراطورية وازدياد الضغوط الدولية عليها ـ بتنحية السلطان عبد العزيز وخليفته السلطان مراد الخامس وتنصيب السلطان عبد الحميد الثاني الذي حكم في الفترة ١٨٧٦ ـ ١٩٠٩ . وقد ركب هذا الاخير الموجة الاصلاحية ووافق على اعلان دستور وتأسيس مجلس نيابي لم يلبث ان ارتد عنهما وعطلهما في شباط / فبراير ١٩٧٨ منهيا بذلك عصر « التنظيمات الخيرية » . ومع ان المراجع المختلفة اعتبرت تاريخ تجميد السلطان عبد الحميد للدستور بمثابة التاريخ الرسمي لنهاية عصر اصلاحات « التنظيمات الخيرية » ، فان ذلك لا يلغي كون عهد عبد الحميد شهد ـ رغم توقف وانتكاس الاصلاحات السياسية ـ اصلاحات متعددة في المجالات الاخرى (٣٩) .

اما المحاولة الكبرى **السابعة**، والاخيرة ، للاصلاح فقد قادتها ، هذه المرة « جمعية الاتحاد والترقي » التي امسكت خيوط السلطة الحقيقية تدريجيا في اعقاب انقلابي ١٩٠٨ و ١٩٠٩ (٤٠) .

٢ ـ **المحصلة النهائية**: بات من المؤكد الان ان النظر الى محاولات الاصلاح ، التي شهدتها الامبراطورية العثمانية في المراحل المتلاحقة ، على انها محاولات منهجية مبرمجة ومترابطة انما هو من قبيل المبالغة والمغالطة . ذلك ان تلك المحاولات كانت في مجموعها (أ) حلقات في سلسلة غير متصلة ، تماما مثلما كانت (ب) حلقات منفصلة او شبه منفصلة تباينت فيما بينها تباينا شمل مختلف جوانبها .

---

(٣٨) حول هذه التسميات المختلفة للجيل الجديد من المصلحين ، راجع :
زين ، **المصدر السابق** ،ص ٧٥ . ايضا : حوراني ، **المصدر السابق** ، ص ٣١٤ . كذلك :
Weiker , **OP. Cit.** , P . 5 .

(٣٩) المعلومات عن جيل المصلحين الجدد وعن عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، مستقاة من المصادر التالية : زين ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٤١ ، ٥٨ ، ٧٣ و ٧٥ و ٧٩ . ايضا :
حوراني ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٩٠ و ٣١٤ . كذلك حتي ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٢٧ ـ ٢٨ و ٧٦ ـ ٧٧ . ايضا انظر :

Weiker, **Op.Cit.**, pp.5 and 37-8; Tibawi, **Op.Cit.**, PP. 148-9, 152, 188-99, and 196-9;
Davison, «Turkey», in Ward and Rustow (eds.) **Op. Cit.**, PP.99-100; Palmer, **Op.Cit.**, PP. 630 and 634-5 and in Davison, **Reform in the Ottoman Empire.** PP. 81-408.

(٤٠) حول حركة المعارضة العثمانية ونجاحها في اسقاط السلطان عبد المجيد وجهودها في الاصلاح وسياساتها العامة ، انظر : حتي ، **المصدر السابق** ،الصفحات ٧٦ ـ ٧٧ . ايضا :
زين ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٧٩ و ٨٧ . كذلك :
مصطفى الزين ، **اتاتورك** (بيروت : دار النهار للنشر ، ١٩٧٢) الصفحات ١٦ ـ ٣٢ . ايضا ، راجع المصادر التالية :

D.Rustow, «Turkey», in Word and Rustow (eds.) **Op.Cit.**, PP.360-3; and A. Payaslioglu, «Turkey», in Ward and Rustow (eds.), **Op.Cit.**, PP.414-7 and 428.

فقد توزعت محاولات الاصلاح على امتداد فترة زمنية طويلة طولها بطول حياة الامبراطورية ذاتها تقريبا . وتوزعت المحاولات الرئيسية ، كي لانتحدث عن الفرعية ، بين فاصلين زمنيين هما الربع الاخير من القرن السابع عشر ، والربع الاول من القرن العشرين . بل أن تواريخ وقوع كل واحدة من محاولات الاصلاح تؤكد ، الا فيما ندر ، فقدان التواصل الزمني الوثيق حتى بين اصلاح معين والاخر الذي يليه .

كما ان تلك المحاولات افتقرت الى التواصل القيادي سواء من حيث الرموز البشرية او من حيث حوافز القيادات ، او من حيث توجهاتها . فقد ساهمت في تلك المحاولات ، وان بدرجات متفاوتة تبعا للحالة المحددة ، القيادات الرسمية المتربعة « فوق » سدة السلطة والقيادات غير الرسمية القابعة « تحت » مظلتها ، والدول والقوى الاجنبية الفاعلة خارج المظلة العثمانية . كما ان تلك المحاولات كانت لدى الطرف الذي يصوغها ، الداخلي او الخارجي لا فرق، اما توجها استراتيجيا مؤقتا او توجها تكتيكيا في الاساس تبعا للاصلاح المحدد في الظرف المحدد . ولذلك ، فان السمة العامة لتلك الاصلاحات تلخص في جوهرها ، وبعيدا عن بعض الاستثناءات النادرة ،في انها كانت اصلاحات لفظية وقشرية او ، في احسن الاحوال ، غير جذرية . تماما مثلما ان معظمها كان ـ من حيث السمة العامة ـ اصلاحات فوقية تمت تحت وطأة الخوف من التهديد الذي يمثله الخطر الاجنبي ، أو من اجل ارضاء الطرف الاجنبي ، أو تحت وطأة الضغط المباشر للاجنبي . واخيرا ، كانت تلك الاصلاحات اسيرة قوى داخلية وخارجية مناهضة لها او هي كانت ، في احسن الاحوال ، تتم في ظل ظروف مقاومة شديدة من تلك القوى او بعضها .

ولعل المحصلة النهائية لتلك الاصلاحات تتلخص في النتائج المختلطة والمتعاكسة ، السلبية والايجابية في ان معا ، التي انتهت اليها . فهي وان نجحت في اطالة عمر الامبراطورية (عبر ارضاء الدول الاجنبية الطامعة فيها وتأجيل هجمتها او تجميد هجمة بعضها)فإنهالم تنجح في حقن شرايين الامبراطورية بدماء الشباب والقوة المرغوبة . وهي وان منحت قدرا معينا من الاوكسجين السياسي ولاجتماعي والاقتصادي لنشوء وبدء تشكل طبقة وسطى جديدة ، فانها لم توفر لتلك الطبقة القدر اللازم لها للنمو السريع . وكان لابد من مضي وقت كاف حتى تغدو تلك الطبقة قادرة على الاضطلاع بدورها المامول في التغيير . كما أن تلك الاصلاحات ، وان اضعفت القوى التقليدية المحافظة الدافعة « الى الوراء » في المجتمع العثماني ، فانها ـ وهي تحقق ذلك ـ فقدت الكثير من زخمها . ولذلك ، عجزت تلك الاصلاحات عنهان تكون خطوة واسعة « الى الامام »، وبقيت اشبه ما تكون بالقوة « المراوحة مكانها » التي نجحت في اضعاف خصمها بعد أن نجح الخصم ذاته في حرمانها من الوصول الى موقع القوة الذي سعت اليه . ومجددا ، كان لابد من وقت اضافي ، تنمو معه الطبقة الوسطى ونزداد فيه جذرية الاصلاحات ، حتى يتم اقتلاع تلك القوى الاقطاعية التقليدية اقتلاعا كاملا او شبه كامل . وفي تلك الاثناء ، وبانتظار تلك التطورات ، كانت النتيجة الراهنة لما انتهت اليه الاصلاحات عندئذ تتلخص في : ازدياد مركزية الدولة دون ازدياد قوة الدولة ذاتها .

ومع أن المركزية الجديدة للدولة أفادت في تطويق القوى الانفصالية (او الاستقلالية) داخل الامبراطورية وتاجيل انفكاكها ، وساعدت في حماية رعايا الامبراطورية من جبروت الاقطاع المحلي ، فان تلك المركزية افضت الى تمركز شديد في السلطة. وكان هذا التطور محركا هاما، ضمن عوامل

اخرى ، في اطلاق العنان للقوى اللبرالية التركية (اساسا) وغير التركية للاصطدام بالسلطة المركزية ومحاولة تقويضها ، تماما مثلما كان محركا هاما ساعد في تسريع نمو القوى اللبرالية والاستقلالية غير التركية (العربية اساسا) (٤١) .وهذا هو ما سنعالجه ، فورا ، في المبحث الثالث والاخير من هذه الدراسة .

العوامل القديمة ـ الجديدة واحداث نصف القرن الأخير

ربما تكون وقائع الفترة الممتدة ما بين السنوات القليلة السابقة لاعتلاء السلطان عبد الحميد سدة السلطة والسنوات القليلة التي اعقبت خلعه هي الفترة الاكثر حسما في تلاشي الامبراطورية العثمانية . فالعوامل « التاريخية » الداخلية ، التي اضعفت الامبراطورية وفككتها وصاغت ازمتها الداخلية ، وبقيت فاعلة ومؤثرة . والعوامل « التاريخية » الخارجية ، التي انهكت السلطنة العثمانية ومزقتها وصاغت ازمتها الخارجية ، ازدادت شراسة . ورغم ان الازمتين حافظتا على الحيثيات الاساسية والمعالم البارزة المكونة لكل منهما تاريخيا ، فان الافرازات المتراكمة لكل واحدة من الازمتين تحولت ـ اثناء هذه الفترة موضع البحث ـ الى حالة نوعية جديدة . ذلك ان ضغط عوامل الازمة الخارجية اصبح ، في السنوات الاخيرة من حياة الامبراطورية ، الاكثر حسما اذا ما قورن بوزن عوامل الازمة الداخلية . كما ان الوضع الداخلي شهد تحولا نوعيا جديدا تمثل في تشكل قوى سياسية معارضة ومنظمة سواء كانت عثمانية او تركية او غير ذلك ، وذات مضامين لبرالية اسلامية او قومية متصلبة او غير ذلك . واخيرا ، فان جوهر « المسألة الشرقية » طغى وبقوة على سطح الاحداث منهيا بذلك الاشكال القديمة التي عبرت فيها تلك المسألة عن نفسها في الماضي . فمع السنوات الاخيرة ، لم تعد محصلة التنافس الاوروبي الابقاء على الوضع الراهن في الامبراطورية ، وانما التسابق الى تفكيك ونهش تلك الامبراطورية . ومع نهاية عهد السلطان عبد الحميد تفاعلت عوامل الازمة الخارجية مع عوامل الازمة الداخلية لتنسج خيوط ازمة شاملة مستحكمة :

فعلى الصعيد الخارجي العام ، استمر فعل العوامل الاقليمية والسياسية والعسكرية والدينية الدولية من زاوية اغراء الدول الاوروبية بالتدخل في شؤون الامبراطورية والاستيلاء على اقاليمها . كما أن التقدم الاوروبي على كل الاصعدة زاد شهية الدول الاوروبية المختلفة للتوسع على حساب مصالح واراضي الكيان المتخلف للامبراطورية التي كانت بمثابة « رجل اوروبة المريض ».فمن جهة اولى ، اغتنمت الدول الاوروبية الحروب الخارجية للامبراطورية في الاعوام ١٨٧٨ ، ١٩١٢ ، ١٩١٣ ، ١٩١٨ لاضعاف الامبراطورية وسلخ اراض تقع ضمن نطاق سيطرتها . ومن جهة ثانية ، استغلت الدول ذاتها الحروب والتمردات الداخلية في الامبراطورية لزيادة ممتلكاتها وتوسيع نفوذها في جنوب القوقاز ، وصربية ، ورومانية ، وبلغارية ، وبوسنة ، وقبرص ، ومصر ، وتونس ... وغيرها . ومن جهة ثالثة وظفت الدول الاوروبية تقدمها الراسمالي من اجل انجاز ارتهان الاقتصاد العثماني لاقتصادها مفاقمة بذلك ازمة البناء الاقطاعي للامبراطورية ، وضاربة كذلك الصناعات اليدوية المحلية فيها . ومن جهةرابعة ، ضاعفت الدول الاوروبية الامتيازات الخاصة بالجاليات والرعايا غير المسلمين موطدة

---

(٤١) الاستنتاجات حول المحصلة النهائية للاصلاحات مستقاة من الوقائع والخلاصات الخاصة بتلك الاصلاحات حسبما وردت في المصادر المشار اليها في الحواشي ٣١ ـ ٤٠ .

بذلك ـ وعلى نحو جدلي ـ ارتباط هذه الجاليات واولئك الرعايا بها اقتصاديا وقوميا وثقافيا . وكان كل ذلك على حساب وحدة مجتمع واراضي السلطنة العثمانية (٤٢) .

وعلى الصعيد الداخلي العام ، استمرت قوة التشكيلات المختلفة لطبقة الاعيان ، ومعها نزعاتهم الانفصالية ، في التصاعد رغم نجاح « الاصلاحات الخيرية » في اضعاف حالة اللامركزية التي طالما عانت منها الامبراطورية . ومن جهة ثانية ، بقى البناء الاجتماعي والاقتصادي الاقطاعي القديم قائما رغم الاصلاحات التي شهدتها الاقاليم المختلفة وبالذات في سورية الطبيعية . ومن جهة ثالثة ، أدى انخفاض انتاجية المجتمع والاقتصاد الامبراطوري ، علاوة على بذخ واسراف وفساد المسؤولين العثمانيين ، الى وقوع السلطنة في شباك الديون الاجنبية المتراكمة والمتزايدة ابدا . ومن جهة رابعة ، ادى « نظام الملل » ونظام الامتيازات » الى اعاقة الوحدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للامبراطورية ، بل والى تفكيك تلك الوحدة . كما أن ذينك النظامين شكلا نوعا من التربة الخصبة لنمو التمردات (او الانتفاضات) الانفصالية (او الاستقلالية) ولا زدياد تدخل الدول الاجنبية في الشؤون الداخلية للامبراطورية . ومن جهة خامسة ، أدى عنف السلطة ودمويتها في احيان كثيرة ، علاوة على فسادها وابتعادها عن التعاليم الاسلامية ، الى افقادها الكثير من شرعيتها ومصداقيتها في أعين رعاياها (٤٣) .

ومع النصف الاخير من حياة الامبراطورية العثمانية ، تفاعلت الازمتان الداخلية والخارجية لتبلور ـ ضمن نتائج اخرى ـ قوى سياسية « عثمانية » مختلفة سرعان ما أسرجت حصان التوجهات الانفصالية والانقلابية والاستقلالية . وقد انتظمت هذه القوى ، ضمن الخريطة السياسية « الداخلية » العامة للامبراطورية ، في توجهين رئيسيين : اما الاول فلم يعترف بعثمانيته منذ بداية الفترة موضع البحث وسعى جاهدا الى تمزيق الخيمة العثمانية بسيوف التمردات (او الانتفاضات) القومية . اما التوجه الثاني فاصر على عثمانيته وسعى الى تطويرها عبر « النضال الداخلي » باسلوب الاصلاح ، متسلحا بافكار توفيقية تمزج مضامين اللبرالية الغربية مع مضامين الاسلام . وفي حين ضم التوجه الاول الشعوب والاقليات القومية الاوروبية (ارمن ، رومانيين ، بلغاريين ، يونانيين ، البانيين ...الخ) ضم التوجه الثاني الطلائع اللبرالية بين الاتراك وبين شعوب البلاد العربية « العثمانية » سواء في اسية او افريقية (قبل احتلالها من الدول الاوروبية) . وقد خاضت اطراف التوجه الاول شريطا متصلا من المعارك التي اتخذت شكل الانتفاضات (او التمردات) او الحروب الانفصالية (او الاستقلالية) على امتداد سنوات النصف الاخير من حياة الامبراطورية . وهنا ، ليس ثمة حاجة للتوكيد على ما ادت اليه هذه المعارك ، المدعومة بشكل مباشر او غير مباشر من هذه الدولة

---

(٤٢) حول التطورات في البيئة الخارجية في عهد عبد الحميد ، انظر ، مثلا ، المصادر التالية : حتي ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٢٦ و ٢٨ . ايضا : د . امين ، **الامة العربية ـ القومية ـ وصراع الطبقات** ، الصفحات ٦٥ ـ ٦٦ .
كذلك :

Palmer. **Op.Cit.,** PP.634-5; Tibawi, **Op.Cit.,** PP.152,188-94; Davison, «Turkey», in Ward and and Rustow (eds.), **Op.Cit.** PP.99-100.

(٤٣) حول التطورات في البيئة الداخلية في عهد عبد الحميد ، راجع علاوة على المراجع الوارد ذكرها في الحاشية السابقة ، المصادر التالية : الكيالي ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٤٤ ـ ٤٥ . وكذلك : د . اميل توما ، **الحركات الاجتماعية في الاسلام** (بيروت : دار الفارابي ، ١٩٨٠) الصفحات ١٥١ ـ ١٥٢ ، و ١٧٥ ـ ١٧٧ .

الاوروبية او تلك ، من خسائر واضحة . ذلك ان الامبراطورية العثمانية فقدت ابان تلك المعارك ، عدا عن النزيف المعنوي والبشري والمادي الحاد الذي اصابها ، جميع امتداداتها في اوروبة .

اما المواجهة مع اطراف التوجه الثاني فقد اتخذت اشكالا مختلفة وسارت في اتجاهات مغايرة . ذلك انه كانت لهذه الاطراف خطط وبرامج وجهود مختلفة أملوا من ورائها وقف الانحطاط كخطوة اولى على طريق بعث الامجاد الغابرة للامبراطورية . وعلى طريق تحقيق ذلك ، تصارع على السلطة المركزية ـ ضمن هذا التوجه ـ تياران عثمانيان جاءت غالبيتهما الساحقة من اللبراليين الاتراك الذين ظهروا على مسرح الاحداث بقوة معقولة بدءاً من ستينات القرن التاسع عشر . وعندئذ ، بدا وكأن الساحة السياسية اصبحت خالية من مراكز القوى التقليدية المحافظة المعششة في مختلف مناحي الحياة وفي مختلف المواقع الجغرافية العثمانية . ومع العام ١٨٧١ ، اثر وفاة علي باشا (بعد فؤاد باشا) اللذين قادا التيار الاصلاحي « المعتدل » ، ازداد نفوذ التيار الاصلاحي « الجذري » بقيادة مدحث باشا . وعند منتصف العام ١٨٧٦ ، نجح هذا الاخير وانصاره بعزل السلطانين عبد العزيز ومراد الخامس على التوالي ، واتوا بالسلطان عبد الحميد الثاني . وقبل نهاية العام ، اعلن السلطان الجديد ـ بايعاز من التيار الجذري ـ دستورا جعل الحكم في البلاد نيابيا . وعندما اتضح ان المجلس التشريعي الجديد مصر على المشاركة الفعلية في الحكم ، وان الجيش الامبراطوري اوشك ينهزم في الحرب السادسة (خلال قرن) التي كانت تشنها روسية ، انقلب السلطان عبد الحميد على اللبراليين فحل البرلمان في ١٩ آذار / مارس ١٨٧٧ ، وطرد قادتهم مثلما طرد مدحت باشا قبل ذلك ببضعة اشهر . ومنذئذ ، تمحور الصراع بين قوى « الانقاذ العثمانية الداخلية » ـ اذا جازت العبارة ـ في معسكرين رئيسيين : الاول متحلق حول السلطان ، والثاني حول المعارضة اللبرالية . ورغم اتفاق الطرفين على هدف « الانقاذ » بمعناه العام ، فانهما اختلفا ، من حيث الممارسة ، حول تحديد « سقف » او « ارضية » ذلك الهدف . فالسلطان عبد الحميد اكتفى ، فيما يبدو من ممارساته ، ببرنامج « الحد الادنى » من الانقاذ الذي عنى عنده وعند انصاره : الحفاظ على الوضع الراهن ووقف عملية تمزيق الامبراطورية . اما برنامج « الحد الاقصى » الخاص ببعث شباب الامبراطورية واستعادة امجادها فكان الهدف المعلن والمطلوب من قبل المعارضة اللبرالية العثمانية . هذا من ناحية .

ومن ناحية ثانية ، كانت وسائل وقيادة وبنية كل واحد من معسكري « الانقاذ » على طرفي نقيض : اما معسكر عبد الحميد فقد سعى الى تحقيق هدفه عن طريق الاصلاحات غير السياسية ، وتقوية مركزية الدولة ، والابقاء على جوهرها الاوتوقراطي الثيوقراطي . ومع ازدياد عزله للقوى اللبرالية العثمانية الاسلامية المعارضة (وغيرها من القوى الاستقلالية والانفصالية غير الاسلامية) وقمعه لها بمختلف الوسائل البوليسية والدموية استقطب السلطان ، بوسائل متعددة ، مزيجا عريضا من القيادات والقوى . فقد التفت حوله ، لاسباب دينية وتقليدية ومصلحية ، غالبية قيادات القوى المحافظة ومؤيدوها داخل الامبراطورية (المؤسسة الدينية ، الاعيان ، الوجهاء ، الآغوات ... الخ) . كما لم تعاده ، وربما دعمته ، قطاعات جماهيرية واسعة من العثمانيين الاتراك والعرب وغيرهم .

وعلى صعيد مختلف ، سعى معسكر المعارضة الى تحقيق هدفه الاستراتيجي عن طريق الاصرار على عودة الحياة البرلمانية وغير ذلك من الاصلاحات السياسية التي تمزج الافكار اللبرالية الغربية وتوفقها مع الاسلام . وحتى مطلع القرن العشرين بقيت قيادة وبنية هذا المعسكر بأيدي عناصر

طلائعية مسلمة او متأسلمة (تركية اساسا) تنتمي الى قطاعات مختلفة من ابناء الطبقة الوسطى المسلمة (مثقفين ثوريين ، طلبة المدارس المدنية والعسكرية ، صحفيين ، مدرسين ، صغار موظفين وجهاء محليين ، وقلة من صغار ضباط الجيش ... الخ). ورغم انضمام بعض العناصر غير المسلمة اليها ، عجزت قوى هذا المعسكر ، الاشبه ما يكون بالجبهة العريضة ذات القيادة والتركيبة المسلمة او المتأسلمة والتركية اساسا ، في تحويل اختراقهم الهامشي للجماهير العثمانية (وبالذات العربية) الى اختراق اساسي او شبه اساسي(٤٤) .

اصبح الشغل الشاغل للسلطان عبد الحميد ، منذ ان انقلب على اللبراليين العثمانيين، الحفاظ على حكمه وعلى الوضع الراهن للامبراطورية في وجه محاولات النهش التي سعت اليها الدول والحركات الانفصالية (او الاستقلالية) الاوروبية . ومنذئذ ، اكتفى السلطان ببرنامج « الحد الادنى » ذاك وبات واضحا ان تلك هي حدود « انقاذ » الامبراطورية عنده وعند أنصاره. اما « برنامج » الحد الاقصى « الخاص ببعث شباب الامبراطورية واستعادة أمجادها فاصبح - بوعي منه او بدون وعي - مسألة غير واردة أو بحكم المؤجلة . ذلك ان النهج الذي نهجه ، في غمرة انشغاله في التحديات المباشرة والأكثر ضغطا والحاحا ، جعل امكانية تجاوزه « الحد الادنى » الى « الحد الاقصى » امكانية مستحيلة ذاتيا وموضوعيا . فهو بعد ان استحوذت عليه فكرة الحفاظ على حكمه الفردي اولا ، كان لابد له من الاتكاء على مقومات الوضع الراهن الداخلي آنذاك بكل مافيها من تخلف وقصور ، من اجل ضرب القوى اللبرالية العثمانية الاصلاحية الصاعدة ليدرء عن نفسه « الخطر الداخلي » . وقد قاده ذلك الى تبني نهج ان نجح في الابقاء على حكمه وعلى الوضع الراهن على المدى القصير ، فانه عاجز عن تحقيق ذلك على المدى الطويل ناهيك عن الوصول الى استعادة المجد الغابر . وبالفعل نجح السلطان عبد الحميد في قيادة سفينة حكمه (وليس سفينة الامبراطورية بالضرورة) في بحر من العداء الداخلي والخارجي طوال الثلاثين عاما التالية عبر اغتنامه لفرص اتاحتها له الظروف الدولية والمحلية من جهة ، وعبر اعتماده مجموعة سياسات خارجية وداخلية من جهة ثانية . ورغم استثماره لتلك الظروف وتبنيه لتلك السياسات ، كان نجاحه (المؤقت) ازاء « الخطر الخارجي » متواضعا اذا ماقورن بنجاحه (المؤقت) ازاء « الخطر الداخلي » . فرغم انه حافظ على بعض الممتلكات والحقوق العثمانية وطوق تيارات انفصالية (او استقلالية) عديدة في اوروبة ، فانه في « اتفاقية برلين » للعام ١٨٧٨ خسر وتنازل عن كثير من الحقوق الاقليمية والسياسية « العثمانية » في تلك القارة . ولم يمض وقت طويل حتى فقد قبرص ومصر لبريطانية ، وتونس لفرنسة (٤٥) .

---

(٤٤) المعلومات حول تركيبة وبنية ووسائل هذين التوجهين الرئيسيين وتفرعاتهما العثمانية مستخلصة من المصادر التالية : حوراني ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٣١٤ ، ٣١٨ و ٣٣٤ ايضا : زين ، **المصدر السابق** ، ص ٧٣ ، كذلك : حتي ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٧٦ - ٧٧ . ايضا : توما **الحركات الاجتماعية في الاسلام** ، الصفحات ١٥١ - ١٥٢ و ١٥٦ . كذلك في :

A.T.Pataslioglu, «Turkey», in Ward and Rustow (eds.) **Op. Cit.**, pp.414-7 and 428; and in D. Rustow, «Turkey», in Ward and Rustow (eds.), **Ibid.**, PP.360-1.

(٤٥) حول النهش الاجنبي للامبراطورية في عهد عبد الحميد ، راجع :
حوراني ، **المصدر السابق** ، الصفحات ١٣١ - ١٣٤ . ايضا : حتي ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٢٦ - ٢٧ . كذلك :

Davison, «Turkey», in Ward and Rustow (eds.), **Op.Cit**, P.99.

اما نجاح السلطان عبد الحميد الاكبر (المؤقت) فكان على صعيد درء « الخطر الداخلي » عن عرشه . فقد اعتمد السلطان في مواجهة الحركات القومية الانفصالية (او الاستقلالية) والاصلاحية اساليب تراوحت ما بين المجازر والتدمير في جانب ، والعنف البوليسي في جانب ثان ، والتسامح والاسترضاء والاعمار في جانب ثالث . وفي حين خص الاقليات الاوروبية القومية بالاسلوب الاول ، خص الحركة اللبرالية الاصلاحية العثمانية (التركية اساسا) بالاسلوب الثاني ، وخص البلاد العربية الآسيوية (وهي المتبقية في الامبراطورية مع نهاية القرن) بالاسلوب الثالث مع استعمال الاسلوب الثاني ايضا مع العناصر العربية القليلة العاملة ضمن المعارضة العثمانية . وقد تمثل الخطر الاشد والاكثر مباشرة على السلطان في الحركة اللبرالية العثمانية (القومية التركية لاحقا) . فهذه الحركة (التركية اساسا) قائمة في عقر داره ، وهي لاتهدده - كما الحركات القومية الاوروبية - بالانفصال عن امبراطوريته ، وانما هي تسعى الى التخلص من اوتوقراطية السلطان ، او من السلطان ذاته (لاحقا) بل والاستيلاء على السلطة ان اقتضى الامر . ثم أن كون دعاة الحركة مسلمين اساسا جعلها أكثر تأثيرا في النيل منه ومن شرعية نظامه القائم ، ولو اسميا ، على الاسلام . كما انه ، رغم الخطر المباشر لهذه الحركة ، وبسبب تركيبتها العثمانية التركية المسلمة ، بقيت يد السلطان ازاءها مغلولة نسبيا بحيث لا يستطيع معالجة خطرها باسلوب المذابح التي مارسها ، مثلا ، ضد الارمن في العامين ١٨٩٥ / ١٨٩٦ (٤٦) .

ومع ذلك يجب ان لايعزى النجاح (المؤقت) للسلطان عبد الحميد سواء في مجال الحفاظ على حكمه الاوتوقراطي او في مجال تطويقه للمعارضة وعزلها عن الجماهير العثمانية (التركية العربية بالذات) الى قمعه البوليسي فحسب . ذلك ان الظروف الموضوعية والظروف الذاتية للمعارضة ساعدته ، ايما مساعدة ، في ذلك ايضا . ومن هذه الظروف : كون غالبية الجماهير العثمانية استشعرت الخطر الاجنبي غير المسلم الذي كان يتهدد اكبر « القلاع الاسلامية » و « خليفة المسلمين » من جهة ، وكونها كتلا بشرية أمية غير مستنيرة وتقليدية محافظة من جهة ثانية ، وكونها استفادت من اصلاحات السلطان عبد الحميد الانشائية والعمرانية والاقتصادية (وبالذات في سورية الطبيعية) من جهة ثالثة ، وكونها بعيدة عن تأثير القوى اللبرالية الطلائعية من جهة رابعة . وكان تاثير هذه القوى الطلائعية هامشيا بسبب بنية الجماهير العثمانية الامية والمحافظة اولا ، وصعوبة المواصلات والاتصالات داخل الامبراطورية ثانيا ، والحصار والتعتيم والقمع السلطاني ثالثا ، وقصور التنظيمات المعارضة وانقسامها رابعا ، وتشتتها في المنافي خامسا ، وطبيعة برامجها «الغربية» سادسا ، والتحالفات القائمة بين بعضها وبعض الدول والقوى الاجنبية سابعا (٤٧) .

وهكذا ، نجح السلطان عبد الحميد ليس في الابقاء على حكمه في مواجهة المعارضة العثمانية

---

(٤٦) هذه الاستنتاجات حول الاساليب العنيفة وغير العنيفة التي لجا اليها عبد الحميد في مواجهة خصومه الانفصاليين او الاصلاحيين مستمدة من الوقائع كما وردت في المصادر التالية : حتي ، **المصدر السابق** ، ص ٢٧ . ايضا : د. حاطوم ، **المصدر السابق** ، ص ١٦ . كذلك :

Tibawi,. OP . Cit . . PP. 194 — 7.

(٤٧) هذه النتائج الخاصة بظروف المجتمع العثماني واوضاع الحركة اللبرالية المعارضة وبرامجها وتحالفاتها مستقاة من المعلومات الواردة في المراجع التالية: حوراني ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٩٠ ـ ٩١ ، ٣١٤ ـ ٣١٩ ، ٣٣٤ و ٣٣٧ . ايضا : جفريز ، **المصدر السابق** ، ص ٩٢ . كذلك حتي ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٤٧ ـ ٤٨ . واخيرا في : صالح مسعود ابو يصير ، **جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن**(بيروت : دار الفتح للطباعة والنشر ، ١٩٧١) ، الصفحات ٣٢ ـ ٣٣ .

(التركية اساسا) فحسب ، بل نجح ايضا في ابقاء تلك المعارضة ضمن الحدود الطلائعية الضيقة حتى اواخر حكمه . فالجماهير العثمانية (ومنهم العرب ـ اكبر المجموعات عددا) بقيت على ولائها للامبراطورية وللسلطان . وحتى عندما نجحت المعارضة بقيادة « جمعية الاتحاد والترقي » في فرض الدستور على السلطان عبد الحميد في العام ١٩٠٨ فهي انما حققت ذلك بالابقاء عليه وعلى حكمه أولا وبأسلوب التلويح بخلعه على يد طلائع عسكرية في سالونيك وغيرها ثانيا ، وبعيدا عن مشاركة الجماهير العثمانية (ومنهم العرب) ثالثا . وان كانت هذه الوقائع تؤكد أمرا فانما تؤكد طليعية الحركة المعارضة وعدم اتساع جماهيريتها في جانب ، تماما مثلما تؤكد غيبة الجماهير العثمانية (ومنهم العرب) عن الاطاحة بعبد الحميد في جانب ثان . بل ان الوقائع تؤكد ان موجة الفرح التي غمرت الجماهير العثمانية (ومنهم العرب) بعودة الدستور اقترنت بالمديح للسلطان باعتباره الجهة التي اعادت الدستور . وهنا لابد من التوكيد على ان تلك المشاعر من جانب الجماهير العثمانية لم تكن بالضرورة حبا بالسلطان كشخص وانما تعلقا به كرمز اسلامي يقود امبراطورية عثمانية « اسلامية » . هذا على الصعيد العثماني العام (٤٨) .

اما على الصعيد الجماهيري « العثماني » العربي ، فمما لاشك فيه انه ـ اضافة الى العوامل العامة ـ كان ثمة عوامل خاصة للتعلق بالسلطان عبد الحميد وبالامبراطورية ربما أبرزها سياسة السلطان الموجهة لكسب ود رعاياه العرب وبخاصة وانهم لم يشكلوا اي خطر عليه او على الامبراطورية فالمسلمون العرب (وهم الاغلبية) كانوا ـ بحكم قوة المشاعر الاسلامية والفكر الاسلامي عندهم وغياب الفكر القومي عنهم طوال عهد عبد الحميد ـ يشعرون بان الدولة دولتهم . وحتى اللبراليين المناهضين منهم لاوتوقراطية الحكم فانهم ، على قلة عددهم في وسط الجماهير الواسعة ، كانوا بغالبيتهم الساحقة مع الاصلاح التدريجي واللامركزية الادارية ، ولم يكونوا دعاة انفصال او ثورة طوال عهد عبد الحميد على الاقل .

اما المسيحيون العرب فكانوا، على عكس مسيحيي اوروبة « العثمانية » ، راضين اجمالا بما حصلوا عليه من حكم ذاتي في جبل لبنان (حيث تجمعهم الاساسي)أو هم ـ في لبنان وغيره ـ يطمحون الى تطوير المكتسبات السابقة عبر الاصلاح الداخلي التدرجي . وحتى الطلائع اللبرالية العلمانية العروبية بينهم فأنهالم تكن (باستثناء ندرة نادرة في اواخر عهد عبد الحميد) من دعاة الانفصال او الثورة بل ان خوف كثير من اللبراليين والعلمانيين المناهضين للسلطان من الخطر الاوروبي جعلهم يلتصقون اكثر فاكثر بمبدا الحفاظ عى الامبراطورية العثمانية وبعث قوتها لمواجهة ذلك الخطر (٤٩) .

---

(٤٨) حول ظروف وطبيعة الانقلاب الاول واعادة الدستور في العام ١٩٠٨ والموقف الجماهيري منه ، راجع المصادر التالية : حوراني ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٣٣٥ ـ ٣٣٦ . ايضا : ابو يصير ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٣٠ ـ ٣١ .

(٤٩) وردت التأكيدات على الموقف العربي العام (في اوساط المسلمين والمسيحيين) المتمسك او المؤيد او غير المعادي للدولة العثمانية طوال عهد عبد الحميد في المراجع التالية : د . توما ، **الحركات الاجتماعية في الاسلام** ، ص ١٥٢ . ايضا : د . حاطوم ، **المصدر السابق** ، ص ١٧ . كذلك في : حوراني ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٣١٤ ـ ٣١٥ . ايضا : د . عطية ، **المصدر السابق** ، ص ١٠٥ . واخيرا في دراسة سالم عبد الغني قنبير ، **الاتجاهات السياسية والفكرية والاجتماعية في الادب العربي المعاصر** (منشورات دار مكتبة الاندلس ، طبعة بيروت ١٩٦٨) الصفحات ٤٤ ـ ٤٨ و ٣٠٥ .

وعلى صعيد مختلف ، يمكن تبين مواقف بعض **الافراد** المعادين للاطار العثماني والمنادين بالاستقلال في هذا الجزء من سورية او ذاك ، في المصادر التالية : حول نجيب عازوري ، انظر : حوراني ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٣٢١ ـ ٣٢٣ . كذلك في دراسة د . حاطوم ، **المصدر السابق** ، الصفحات ١٦ ـ ١٨ . واخيرا ، في دراسة د . الكيالي ، **المصدر السابق** ، ص ٥١ . وحول موقف عبد الرحمن الكواكبي راجع : حوراني ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٣٢٥ ـ ٣٢٦ . كذلك : د . حاطوم ، **المصدر السابق** ، ص ١٥ ايضا : د . توما ، **الحركات الاجتماعية في الاسلام** ، ص ١٥٥ .

ومن الاجراءات التي اتخذها السلطان عبد الحميد لتنمية هذه المشاعر والمواقف العربية الودية تجاه الامبراطورية : التطوير الاقتصادي الى درجة أن بلاد الشام غدت في عهده اكثر ازدهارا (ربما اقل بؤسا) من اي منطقة اخرى في الامبراطورية ؛ التطوير الاداري وتخصيص افضل الولاة وأكفئهم لبلاد الشام ؛ تطوير التعليم العصرى في سورية الطبيعية ؛ تقريب العرب المسلمين واستخدامهم في ديوانه وحرسه ، وتعيين العرب المسيحيين في مناصب عالية في وزارات الخارجية والزراعية والاشغال العامة وغيرها ؛ ترسيخ المكتسبات السابقة الخاصة بالتسامح الديني في علاقات الطوائف المسلمة وغير المسلمة ؛ الدعوة الى الخلافة الاسلامية رغم ان تلك الدعوة ارتدت عليه عكسيا في الاوساط العربية في وقت لاحق ؛ بناء المساجد وانشاء المدارس الاسلامية (٥٠) .

ومن المؤشرات السياسية الهامة على صحة هذه الاستنتاجات الخاصة بمواقف العرب ، عدا عما ثبتته المراجع العلمية المطلعة ، غياب وجود اية تنظيمات سياسية عربية مهمة ـ حتى ولو طلائعية ـ مناهضة للسلطان طوال مدة حكمه سواء في اوساط المسلمين او المسيحيين العرب . اما العرب الذين ناهضوا السلطة من خلال تنظيمات تركية الفتاة او جمعية الاتحاد والترقي (التركية اساسا) فكانوا قلة ضمن تنظيمات هي ، اصلا ، منظمات قلة .

غير ان عدم وجود تنظيمات سياسية عربية وطنية تدعو الى استقلال البلاد العربية في العام ١٩٠٨ لاينفي وجود ارهاصات وطنية وعروبية بدات تتحرك في ذلك الاتجاه . وبغض النظر مؤقتا عن القضايا الشائكة الخاصة بمفهوم القومية العربية وهويتها وعوامل تكوينها وحوافز قيادتها ووجودها الزمني(٥١) ، فانه لمن الثابت وجود تأثيرات ، متواضعة ونامية في آن معا ، لجملة افكار طرحها بعض الاعلام

---

(٥٠) حول سياسة عبد الحميد لكسب ود العرب ، راجع المصادر التالية : حوراني ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٣١٤ ، ٣١٨ ٢٣٢ . ايضا : حتي ، **المصدر السابق** ، ص ٢٨. كذلك : جفريز ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٦٢ ـ ٦٤ و ٦٧. ايضا : د . مورو بيرجر ، **العالم العربي اليوم** ، ترجمة محي الدين محمد (بيروت : دار مجلة شعر ، ١٩٦٣) ، الصفحات ٢٧٤ ـ ٢٧٥ . واخيرا : د . عطيه ، **المصدر السابق** ، ص ١٠٥ . ايضا :

Tibawi, **Op. Cit.**, PP. 179-88 and 194-8; Palmer, **Op. Cit.**,P. 635; Davison, «Turkey», in Ward and Rustow (eds.) **Op. Cit.**, P. 99.

(٥١) حول المواقف المختلفة من ظاهرة القومية (ومن ضمنها العربية) انظر المراجع الواردة ادناه على سبيل المثال لا الحصر : (أ) نجد التاكيد على ان القومية (او القومية العربية) قديمة ودائمة في كل من د . الرزاز ، **المصدر السابق** ، ص ٢٤ . كذلك في دراسة الدكتور نور الدين حاطوم ، **محاضرات عن المراحل التاريخية للقومية العربية** (القاهرة : معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٦٣) ، ص ٥ . ايضا في هرتز ، **المصدر السابق** ، ص ١٦٤ .

(ب) نجد التأكيد على ان القومية (او القومية العربية) زائلة في المواقف الماركسية الكلاسيكية وفي بعض المصادر الماركسية المعاصرة . اما حول كونها ظاهرة جديدة ، انظر : . Palmer , OP . Cit . , PP 477 — 8 and 509 وكذلك في دراسة الدكتور زين زين ، **نشوء القومية العربية** (بيروت : دار النهار للنشر ، ١٩٧٢) . واختيار المؤلف لعنوان كتابه دليل كاف على كونه يعتبر القومية العربية ظاهرة حديثة بدون جذور تاريخية متبلورة .

(جـ) وحول كون القومية العربية « يقظة » و « انبعاثا » ودفقا » و « اتضاحا » لحركة قديمة فاعلة ، انظر المصادر التالية : حاطوم ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٨ و ١٠ . كذلك ، حوراني ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٣١١ و ٣١٢ . ايضا في ج . م . ن . جفريز ، **فلسطين : اليكم الحقيقة** ، ترجمة احمد خليل الحاج (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، الجزء الاول ، ١٩٧١) ، ص ٦٤ . واخيرا ، في : نجيب عازوري ، **المصدر السابق** ، الذي جعل عنوانه « يقظة الامة العربية » .

(د) حول رجعية او تقدمية الظاهرة القومية تبعا للظروف مع توضيح المواقف المتباينة منها نجد معالجة مطولة نسبيا لذلك في الرزاز ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٢٩ ـ ٩٥ . كذلك من المفيد العودة الى الحوار الذي جرى في الندوة التي عقدها مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت والمنشور تحت عنوان ، **القومية العربية في الفكر والممارسة** ، وبالذات الصفحات ٦٠ ـ ٦٢ .

البارزين في دنيا العرب منذ نهاية النصف الاول من القرن التاسع عشر . وقد صبت هذه الافكار ، في النهاية ، في مجرى الفكرة القومية العربية . ومن هؤلاء الاعلام الذين صنعوا ما اصبح يعرف باسم « النهضة الفكرية والثقافية العربية » نذكر رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ ـ ١٨٧٣) وخير الدين التونسي (١٨١٠ ـ ١٨٩٩) وجمال الدين الافغاني (١٨٣٩ ـ ١٨٩٧) ومحمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥) وناصيف اليازجي (١٨٠٠ ـ ١٨٧١) وفارس شدياق (١٨٠٤ ـ ١٨٨٧) وبطرس البستاني (١٨١٩ ـ ١٨٨٣) وغيرهم ممن انتظموا على التوالي ضمن ـ ما يمكن تسميته تباعا ـ بتياري « النفير الاسلامي المجدد » و « النفير العلماني العروبي » . ولعل جوهر القاسم المشترك بين هذين التيارين يكمن في دعوة كل منهما الى « اللبرالية العثمانية » ، رغم تباين مفهوم اللبرالية ومداها عند كل واحد من هؤلاء المفكرين فاللبراليون المسلمون العرب (ومعهم الافغاني) من دعاة التجديد الاسلامي اما لم يمانعوا في بقاء الاطار العثماني (الطهطاوي مثلا) او تحمسوا له (خير الدين التونسي ، ومحمد عبده لاحقا) ولكن على اسس لبرالية اسلامية . ومن هذه الاسس اعتماد مبدأ الشورى ومشاركة العلماء المثقفين في ضوء التسامح الديني ، مع التوفيق ـ الى درجة معينة ـ بين الاسلام والحضارة الاوروبية من جهة ، وبين العثمانية (التي كان التونسي اميل لها) والوطنية المصرية (التي كان الطهطاوي أميل لها) أو عدم المفاضلة بينهما (محمد عبده) من جهة ثانية . واما اللبراليون المسيحيون العرب فانهم قبلوا بالابقاء على اطار الامبراطورية العثمانية شرط ان يكون ذلك الاطار لبراليا لايفرق بين ابناء الطوائف الدينية (شدياق واليازجي والبستاني) مع التوفيق بين عثمانية الامبراطورية والوطنية السورية (البستاني) .

وعلى الرغم من ان هذه الطروحات والجهود الفكرية ، شأنها شأن الافكار اللبرالية التركية ، اسهمت في هز الاركان الايديولوجية والسياسية لنظام السلطان عبد الحميد (وهذا ما يفسر معاداته للقائلين بها) فان تأثيرها بقي طوال عهده تاثيرا طلائعيا ، وربما هامشيا ، اذا ماقورن بتاثيرات الفكر اللبرالي التركي . ومع ان تلك الطروحات والجهود افقدت نظام السلطان عبد الحميد مصداقيته وشرعيته « الاسلامية » واللبرالية ، فانها بحكم طلائعيتها وانحصار تأثيرها في اوساط المثقفين ، لم تشكل قوة تهدد نظامه . وعلى الرغم من ان تلك الطروحات والجهود ارست جزءاً من القواعد التي استثمرها وطورها بعض المفكرين البارزين من معاصري وتلامذة واتباع ذلك الجيل من الطلائعيين لتنمية الاحاسيس والروابط الوطنية (ولاحقا التنظيمات السياسية) العروبية والقومية والعلمانية، فانها ـ رغم اسهامها في هز استقرار عهد عبد الحميد ـ لم تؤثر على اي نطاق حاسم في انهاء الامبراطورية ذاتها . وحسبنا عند هذه النقطة ، التوكيد عن ان طروحات ذلك الجيل الاسلامية والعروبية الوطنية كانت وبقيت طلائعية غير متغلغلة في اوساط الجماهير العريضة تدعو ـ او في اسوا الاحوال تقبل فحسب ـ باستمرار الاطار العثماني اطارا سياسيا لها طوال عهد السلطان عبد الحميد(٥٢) .

---

(٥٢) المعلومات حول اعلام وطروحات ومواقف وامتدادات ونتائج « النهضة الفكرية والثقافية العربية » وردت في المصادر التالية: جفرين، **المصدر السابق** ، ص ٦٥ . ايضا الكيالي ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٤٥ ـ ١٤٧ كذلك : حتي ، **المصدر السابق** ، الصفحات ١٩٣ ـ ١٩٥ و ٢٠٧ .ايضا: د . نبيه عاقل، «تطور الامة العربية ونظم الحكم الادارية والسياسية» في كتاب وضعته فئة من الاساتذة ، **دراسات في المجتمع العربي** (بيروت : جامعة دمشق ، تاريخ النشر غير مذكور) ، ص ١١٣ . ايضا : د . توما ، **الحركات الاجتماعية في الاسلام** ، الصفحات ١٥٣ ـ ١٥٥ . كذلك : حاطوم ، **المصدر السابق** ، الصفحات ١٤ و ١٦ . ايضا : قنبير ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٤٤ ـ ٦٤ . كذلك : حوراني ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٩١ ـ ١٠٣ ، ١٠٩ ـ ١٤٣ و ١٦٧ ـ ١٩٧ و ٣٥٧ ـ ٣٦١ .

غير ان الوقائع اللاحقة تؤكد وقوع تغير اساسي في الحقبة الفاصلة مابين عشية الانقلاب الاول في منتصف ١٩٠٨ ، مرورا بالانقلاب الثاني في ربيع ١٩٠٩ ، وغداة الانقلاب الثالث في مطلع ١٩١٣ بقيادة « جمعية الاتحاد والترقي » . فزواج الاهداف والمصالح بين القوى والعناصر التركية والعربية في الحركة اللبرالية العثمانية المعارضة القائم منذ ماقبل الانقلاب الاول سرعان ما تحول الى حالة من الهجر والانفصال في الفترة الفاصلة مابين الانقلابين الثاني والثالث . ثم مالبث ان تحول ذلك الانفصال الى طلاق كامل ، بل واقتتال ، في السنوات القليلة التي اعقبت الانقلاب الثالث . والاخطر من ذلك ، ان هذا التبدل في العلاقات لم يقتصر على غالبية القوى والعناصر العربية اللبرالية المعارضة ، وانما امتد ليشمل مشاعر قطاعات واسعة من الجماهير العربية كذلك . وكان امرا طبيعيا ان يؤدي تغير العلائق السياسية الى تغير الادوات السياسية . فبعد ان كان اللبراليون العرب ملتحمين التحاما تنظيميا كاملا مع اللبراليين الاتراك في التنظيمات العثمانية المعارضة المعروفة ، بدأوا منذ العام ١٩٠٩ بالابتعاد عن تلك التنظيمات ذات القيادة التركية الغالبة ليؤسسوا تنظيمات سياسية عربية خاصة بهم . وقد تراوحت مطالب هذه التنظيمات مابين قلة تنادي بالانفصال والاستقلال الناجزين ، وقلة تدعو الى مايشبه الاستقلال السياسي الكامل ضمن السيادة العثمانية ، وأغلبية تسعى الى استقلال اداري ضمن صيغة اللامركزية العثمانية (٥٣) . ولم يكن هذا التحول السياسي والتنظيمي الواسع مجرد صدفة تاريخية . ذلك انه كان نتاجا مفهوما لمجموعة ظروف وعوامل ، بعضها خارجي او داخلي ، وبعضها تاريخي او حديث ، وبعضها موضوعي او ذاتي ، وبعضها مباشر . ولعل من ابرز هذه الظروف والعوامل :

اولا : التحول النوعي الهائل في الصراع الدولي بين دول اوروبة وانعكاس ذلك انعكاسا كاملا على جوهر « المسألة الشرقية » . فمع وقوع انقلاب ١٩٠٨ ، كانت صيغة الوفاق الدولي ، وفقا لقواعد « مؤتمر برلين » للعام ١٨٧٨ ، قد تآكلت وبدأت الدول الاوروبية تتحرك ـ تحت وطأة التناقضات الحادة داخل المعسكر الراسمالي الاستعماري الغربي ـ باتجاه صيغة المحاور المتجابهة . وقد انتهى هذا التحول بانفجار الحرب الكونية الاولى التي اشتركت فيها الامبراطورية العثمانية ضمن معسكر المانية القيصرية (٥٤) .

ثانيا : شحذ ذاك التحول الهام في العلاقات الدولية ، علاوة على الانحطاط والضعف التاريخي والانقسام والتصارع الداخلي القائم عندئذ في الامبراطورية العثمانية ، شهية الدول والحركات القومية الانفصالية (او الاستقلالية) الاوروبية لالتهام وجبة جديدة من السيادة والممتلكات « العثمانية » في اوروبة وافريقية . وبذلك وجدت السلطة العثمانية الجديدة

---

(٥٣) حول المراحل المختلفة التي مرت فيها العلاقات العربية التركية في الفترة ما بين الانقلاب الاول ١٩٠٨ وعشية الانقلاب الثالث في العام ١٩١٣ ، ومارافق ذلك من نشوء الاحزاب العربية، انظر المصادر التالية : د . توما ، **ستون عاما على الحركة القومية** ، الصفحات ١٧ ـ ١٨ . ايضا : حوراني ، **المصدر السابق** ، ص ٣١٤ و ٣٣٤ ـ ٣٣٧ و ٣٤ . ايضا : حتي ، **المصدر السابق** ، ص ٤٦ و ٢٠٨ ـ ٢٠٩ . كذلك : جفريز ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٦٧ ـ ٦٨ و ٩١ ـ ٩٢ و ٩٨ ـ ٩٩ . ايضا : ابو يصير ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٣٣ ـ ٣٥ . كذلك : د . ادوارد عطية ، **العرب** ترجمة عبد اللطيف شرارة (بيروت : لبنان ، ١٩٧٢) ، الصفحات ١١٠ ـ ١١١ . ايضا : اسماعيل الخطيب الطوباسي ، **كفاح الشعب الفلسطيني** (عمان : اللجنة العامة لموسوعة اعلام الفكر والادب في فلسطين ، ١٩٧٧) ص ١٢ . والكيالي ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٥٤ ـ ٥٧ . كذلك : توما ، **الحركات الاجتماعية في الاسلام** ، ص ١٥٧ . ايضا : حاطوم ، **المصدر السابق** ، الصفحات ١٧ ـ ١٩ .

(٥٤) حول تغير المناخ الدولي في عهد « الاتحاديين » والسير على الطريق المؤدية الى الاقتتال الاوروبي في الحرب الكونية الاولى ، انظر : حتي ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٤٤ ـ ٤٥ . ايضا : قنيبر ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٣٥٧ ـ ٣٥٨ .

نفسها تخوض غمار معارك وحروب منذ انقلابها الاول وحتى سقوطها نهاية الحرب الكونية الاولى(٥٥) .

ثالثا : تراكمت ، في ظل المراحل المبكرة لهذه الظروف الصعبة ، وربما نتيجة لها ولكن ليس بسببها وحدها ، التوجهات والممارسات السلبية والمعادية للعرب من قبل السلطة العثمانية الجديدة . فالانقسامات الايديولوجية والسياسية والتنظيمية الحادة في صفوف اللبراليين الاتراك انفسهم ، وارتباط قياداتهم الوثيق بالماسونية وبالطوائف اليهودية المتاسلمة ، والتسرع الشديد من قبل تيارهم الاساسي في حقن المجتمع باصلاحات جذرية واسعة غربية المحتوى ومتحدية للمشاعر الاسلامية ، والممارسات العملية الاحتكارية ذات المضمون الشوفيني التركي لدى تيارهم الاساسي ، ومعاداة ذلك التيار للعرب وعزلهم ، وممالئته للصهيونية واطماعها في فلسطين ، كل ذلك ادى الى تنفير العرب وطلائعهم اللبرالية الوطنية طوال الفترة الماضية وحتى وقوع الانقلاب الثالث في مطلع ١٩١٣ (٥٦) . وحتى هذه النقطة الزمنية ، بل والى مابعد المؤتمر العربي الاول في باريس في منتصف العام ١٩١٣ ، بقي التيار العروبي الوطني المتنامي ، ومعه غالبية العرب الساحقة ، متمسكين باطار الدولة العثمانية(٥٧) .

رابعا : تنامت في هذه الاثناء قوة التيار الوطني العروبي مع نمو الطبقة الوسطى حديثة التشكل . وكان هذا التطور نتيجة طبيعية لتراكم التحويلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي شهدها المجتمع العثماني في القرن التاسع عشر وبالذات في بلاد الشام . فمع السنوات الاخيرة من عهد عبد الحميد تبلورت تنائج التحديث السابق (تفسخ الاقطاع وازدهار التجارة ، تعليم عثماني وتبشيري عصري ، تحديث عسكري ، بعثات دراسية لدول اوروبية ، طباعة ونشر عصريان) فوسعت قواعد الطبقة الوسطى العربية في بلاد الشام . ومع تفاعل الارهاصات العربية الوطنية القديمة والارهاصات القومية الاوروبية مع الطموحات الاقتصادية والقومية للطبقة الجديدة الصاعدة (وبعض طبقة الاعيان والوجهاء ايضا) ازداد تسيس المجتمع العربي في سورية الطبيعية . كما ان مناخ الحرية السياسية (والانفلات السياسي

---

(٥٥) حول تحركات القوى القومية الانفصالية في اوروبة في عهد « الاتحاديين » ودعم الدول الاوروبية لهم ، انظر : حتي ، **المصدر السابق** ، ص ٤٥ . ايضا : امين سعيد ، **اسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين** (بيروت : دار الكاتب العربي ، غير مذكور) ص ٣٠ .

(٥٦) فيما يتعلق بتراكم عوامل تنفير العرب من « الاتحاديين » في الفترة ١٩٠٨ ـ ١٩١٣ ، انظر المصادر التالية : الكيالي ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٥٩ ـ ٦٠ و ٨٢ . ايضا توما ، **ستون عاما على الحركة القومية** ، الصفحة ١٥ . كذلك : د . امين ، **المصدر السابق** ، ص ٦٨ . ايضا : بيرجر ، **المصدر السابق** ، ص ٢٧٥ . كذلك : حوراني ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٣٣٤ ـ ٣٣٦ . ايضا :
جفريز ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٦٥ ـ ٦٦ . كذلك :
حتي ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٤٦ ـ ٤٧ . ايضا :
سعيد ، **اسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين** ص ٢٨ ، كذلك : د . خيرية قاسمية (اعداد) **عوني عبد الهادي : اوراقه الخاصة** (بيروت : مركز الابحاث ، ١٩٧٤) ، الصفحات ٩ ـ ١٠ فردريك هرتز ، **القومية في التاريخ والسياسة** ، ترجمة عبد الكريم احمد ومراجعة الدكتور ابراهيم صقر (القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، غير مذكور) ص ١٦٧ .

(٥٧) حول تمسك التنظيمات العربية والعرب اجمالا بالاطار العثماني ، طوال المراحل الاولى من حكم الاتحاديين ، انظر المصادر التالية : الكيالي ، **المصدر السابق** ، الصفحات و ٦٨ ـ ٦٩ . ايضا حتي ، **المصدر السابق** ، الصفحة ٢٠٨ . كذلك : حوراني ، **المصدر السابق** الصفحات ٣٣٦ ـ ٣٣٩ و ٣٦٢ . ايضا : د . حاطوم ، **المصدر السابق** ، الصفحات ١٧ ـ ١٩ كذلك : جفريز ، **المصدر السابق** ،الصفحات ٦٩ ، ٩١ ، ٩٥ و ١٨٦ . أيضا : قنيبر ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٣٠٥ ـ ٣٠٧ .
غير ان الحديث عن التاييد العربي العام، لايعني ان بعض الافراد والتنظيمات لم يكن لديها مواقف استقلالية في هذه الفترة. حول ذلك انظر: حوراني، **المصدر السابق**، الصفحات ٣١٦ و ٣٢٨ـ ٣٢٩ و ٣٤٠ ـ ٣٤٢. ايضا: ابو يصير، **المصدر السابق**، الصفحة ٣٤ . كذلك : د . الكيالي ، **المصدر السابق** ، الصفحة ٥٢ . ايضا: جفريز ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٦٧ ، ٩١ ـ ٩٢ و ٩٧ . كذلك : الطوباسي ، **المصدر السابق** ، ص ١٢ . ايضا : حتي ، **المصدر السابق** ، ص ٢٠٨ . كذلك د . عطية ، **المصدر السابق** ، ص ١١١ . واخيرا : د . توما ، **ستون عاما على الحركة القومية** ، الصفحات ١٧ ـ ١٨ .

لاحقا) الذي اعقب عودة الحياة الدستورية والنيابية في العام ١٩٠٨ منح التسيس العربي زخما جديدا (٥٨) . ورغم ذلك ، لم يتبلور هذا التسيس في تنظيمات عربية (مدنية وعسكرية) الانتيجة الاوضاع والتوجهات والممارسات السلبية المعادية للعرب في ظل نظام « جمعية الاتحاد والترقي » ذات القيادة التركية الغالبة (٥٩) .

بقيت هذه التنظيمات العربية عثمانية في ولائها وتوجهها حتى اللحظة التي تحول فيها مضمون وممارسات الامبراطورية من دول عثمانية اسلامية موحدة الى دولة تركية غير اسلامية محتلة . وعندئذ ، فقط ، تحول الانفصال القائم بين القوى اللبرالية والوطنية العربية وبين القوى اللبرالية الوطنية التركية ، الى طلاق كامل . وفي هذا المجال ، كان الانقلاب الثالث الذي قاده التيار التركي المتشدد داخل « جمعية الاتحاد والترقي » في العام ١٩١٣ نقطة تحول حاسمة في العلاقات التركية ـ العربية . فمنذئذ استفرد « الاتحاديون » المتصلبون بالسلطة ثم انقلبوا ، فكرا وممارسة ، على صيغة « الجامعة العثمانية الاسلامية » لصالح صيغة « الجامعة الطورانية » الرامية الى قصر توثيق الروابط على الشعوب الناطقة بالتركية والمتمتعة بروح وطنية تركية صافية » . بل انهم اصروا على اخضاع الشعوب « العثمانية » الاخرى لهم . وبذلك ، تخلى الاتراك اللبراليون السابقون عن لبراليتهم مثلما تخلوا عن العباءة الاسلامية التي طالما القوها على اكتاف حركتهم وامبراطوريتهم . ولم يتوقف لبراليو واسلاميو الامس عند ذلك الحد. فهم مالبثواان ساروافي دهاليز القومية الشوفينية واصروا ، بأساليب فجة، على تتريك الشعوب الاخرى . ثم سرعان مالـجـأت قوى « الاستعمار الثقافي » تلك الى التصرف في بلاد الشام والحجاز بأساليب قوى الاحتلال : حكم بوليسي وعسكري قمعي لم يتورع عن استخدام اسلحة المصادرة والنهب والترحيل والتشريد ازاء الرعايا بشكل عام ، واسلحة الاعتقال والنفي والاعدام لاحرارهم في العامين ١٩١٥ و ١٩١٦ بشكل خاص . وعندئذ ، تحولت المشانق التي نصبها الحاكم التركي جمال باشا وازهق على اعوادها ارواح مجموعة من احرار العروبة في دمشق وبيروت الى مشانق ازهقت عمليا روح الامبراطورية العثمانية في البلاد العربية (٦٠) . وهكذا ، وبعد تأخير كثير ، تحولت الدعوة العروبية الوطنية والقومية الى حركة تطالب بالاستقلال الناجز والانفصال عن الامبراطورية بعد تردد طويل حسمه شريف مكة في مطلع حزيران / يونيو ١٩١٦ . ففي ذلك الشهر ، غامر الشريف واعلن « الثورة العربية » على الحكم التركي والانضمام الى معسكر الحلفاء . وما كان بامكان شريف مكة الاقدام على ذلك لولا التشجيع والتعضيد الذي لقيه من القيادات الوطنية والقومية السورية والعراقية التي ما ان خاب املها في لبرالية « الاتحاديين » حتى تحولت عن المناداة باللامركزية الادارية الى المنادة بالانفصال والاستقلال . وشريف مكة لم يغامر تلك المغامرة مع الحلفاء الا بعد

---

(٥٨) حول العوامل المبكرة واللاحقة في تسييس العرب العثمانيين مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، انظر : كيالي ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٥٢ ـ ٥٣ ، ٦٠ ـ ٦٢ ، ٦٥ ، ٧٢ و ٧٨ . ايضا : حتي **المصدر السابق** ،١٩٢ ـ ١٩٥ و ٢٠٥ ـ ٢٠٧. كذلك : توما ، **الحركات الاجتماعية في الاسلام** ، الصفحات ١٧٦ ـ ١٧٨ . ايضا : حوراني، **المصدر السابق**، ص ٣٣٤. كذلك : حاطوم ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٩ ـ ١٤ . ايضا: الطوباسي ، **المصدر السابق** ، ص ١١. كذلك : د . امين **الامة العربية ـ القومية ـ وصراع الطبقات** ، الصفحات ٥٤ ـ ٥٥ . ايضا : د . عطية ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٩٢ ـ ١٠٩ .

(٥٩) حول ذلك ، انظر مصادر الحاشيتين ٥٣ و ٥٦ .

(٦٠) حول التطورات التي ادت الى الطلاق العربي ـ التركي في الفترة ما بين ١٩١٣ ـ ١٩١٦ راجع المصادر التالية: الكيالي ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٥٣ ، ٧٦ ـ ٧٧ ، ٨٢ و ٩٠ . حتي ، **المصدر السابق** ، الصفحات ١٨٦ ـ ١٩٥ . ايضا : د . حاطوم ، **المصدر السابق** ، ص ٢١ . كذلك : بيرجر ، **المصدر السابق** ، ص ٢٧٥ . ايضا : ابو يصير ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٣٧ ـ ٣٩ و ٤١ ـ ٤٤ . كذلك : الطوباسي ، **المصدر السابق** ، ص ١٣ . ايضا : امين سعيد ، **ثورات العرب في القرن العشرين** (القاهرة : دار الهلال ، تاريخ النشر غير مذكور) الصفحات ٤٠ ـ ٤٣ .

ان استكمل محادثاته معهم وحصل من بريطانية على وعود صريحة بدعم استقلال العرب وضمان سيادتهم على اراضيهم [٦١] .

وفيما عدا هذه الحقائق عن الظروف المؤدية الى اعلان « الثورة العربية » والانحياز الى معسكر الحلفاء ، ثمة حقيقتان لابد من تثبيتهما :

أولا: تمسكت نسبة هامة من مفكري العرب وسياسييهم وعسكرييهم الوطنيين ، ناهيك عن قطاعات واسعة من الجماهير العربية ، بولائهم للدولة العثمانية ، وقاتلوا ضمن صفوفها ، وساهموا في دعم مجهودها الحربي ، او هم استنكفوا عن حمل السلاح ضدها . وكان كل ذلك رغم معاناتهم الشديدة في ظل تلك الدولة وبالذات بعد العام ١٩٠٨(٦٢) .

ثانيا : لقد كان المجهود الحربي للثورة العربية ـ رغم مبالغة التصريحات البريطانية اللاحقة ـ [٦٣] جهدا متواضعا بالمقاييس المطلقة . بل ان مجهود « الثورة الوهابية » وغيرها من الانتفاضات (او التمردات) العديدة التي شهدتها الامبراطورية وقضت عليها كان اشد خطرا على الهيبة المعنوية والكيان المادي للامبراطورية من « الثورة العربية » . ثم ان المجهود الحربي لهذه « الثورة » التي انهزمت سريعا على ايدى امارة ال سعود المجاورة كان هامشيا للغاية قياسا بجهود القوى المشاركة في الحرب العالمية الاولى [٦٤] ، وذلك المجهود يغدو ، بالتالي ، غير ذي اهمية في تقرير النتيجة النهائية للحرب الكونية الاولى التي حسمت هزيمة كل من المانية القيصرية والامبراطورية العثمانية . واذا كانت المانيا القيصرية الفتية انهزمت وهي في اوج قوتها داخليا وخارجيا ، فانه من باب اولى توقع هزيمة الامبراطورية العثمانية الهرمة التي كانت في حضيض قوتها داخليا وخارجيا. وعليه ، فان ثقل عامل الحركة القومية العربية ـ بقواها المسلمة والمسيحية الناشئة ، وبحركيتها الثقيلة والمترددة (٦٥) وبانقسامها على نفسها ازاء الحرب ، وبوضعها المسحوق عندئذ بمعاول التعسف التركي ـ ماكان ليقدم او يؤخر في سقوط الامبراطورية العثمانية . فهذه الاخيرة كانت بحكم الساقطة « موضوعيا » (٦٦) تحت وطأة مجموعة عوامل الانحطاط الداخلي والخارجي التي ادت ، منذ وفاة السلطان « سليمان العظيم » ، الى انهاك وتفسخ وانهيار واندثار الامبراطورية العثمانية ،

---

(٦١) حول مقدمات وظروف الاعلان عن «الثورة العربية» في الحجاز وعلاقاتها سواء مع الوطنيين في سورية والعراق او مع دول الحلفاء ، انظر : جفريز ، **المصدر السابق** ، الصفحات ١٠٢ ـ ١١٥ ، ١١٧ ـ ١٥٠ و ١٩١ . ايضا : الكيالي ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٨٣ ـ ٩٢ و ٣٦٧ ـ ٣٨٨ . كذلك : ابو بصير ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٣٦ ـ ٥٦ . ايضا الطوباسي ، **المصدر السابق** ، الصفحات ١٣ ـ ١٤ . كذلك : عطية ، **المصدر السابق** ، الصفحات ١١٤ ـ ١١٨ . ايضا : سعيد ، **اسرار الثورة العربية** ، الصفحات ٣٤ ـ ١٣٠ . كذلك : حتي ، **المصدر السابق** ، الصفحات ١٦٦ ـ ١٦٧ و ٢٠٩ . ايضا : د . حاطوم ، **المصدر السابق** ، ص ٢١ . كذلك د . امين ، **الامة العربية ـ القومية ـ وصراع الطبقات** ، الصفحات ٦٨ ـ ٦٩ .

(٦٢) حول تمسك قادة ومفكرين وسياسيين وعسكريين وجماهير عربية بالدولة العثمانية ومساعدتها في الحرب الكونية الاولى ، انظر : الدكتور حاطوم ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٢٠ ـ ٢١. ايضا : حوراني ، **المصدر السابق**، الصفحات ٣٤٣ـ٣٤٤. كذلك : د . عطية ، **المصدر السابق** ، ص ١١٦ . ايضا : سعيد ، **اسرار الثورة العربية** ، الصفحات ٢٥٨ ـ ٢٥٩ و ٢٦٤ . كذلك : قنيبر ، **المصدر السابق** ، الصفحات ٣٥٧ ـ ٣٥٨ .

(٦٣) حول التقويمات البريطانية المجاملة للمجهود الحربي الخاص بالثورة العربية ، انظر : جفريز **المصدر السابق** ، ص ١٨٥ . ايضا : د . عطية ، **المصدر السابق** ، ص ١١٨ . كذلك: سعيد ، **اسرار الثورة العربية** ، الصفحات ٢٩١ ـ ٣٠٦ .

(٦٤) حول القوة والفاعلية الحقيقة للثورة العربية، راجع: د . حاطوم، **المصدر السابق** ، الصفحات ١٥ ـ ١٦ و٢٢. ايضا : جفريز، **المصدر السابق** ، ص ١٩٨ . كذلك : الطوباسي ، **المصدر السابق** ، ص ١٤. ايضا : د. عطية **المصدر السابق**،الصفحات ١١٦ ـ ١١٧ . كذلك : سعيد ، **اسرار الثورة العربية** ، الصفحات ٧ و ١٣ .

(٦٥) وصف الحركة القومية العربية على انها « ثقيلة الحركة ، مترددة ، ومشعبة » ورد في د . حاطوم ، **المصدر السابق** ، ص ٨ .وحول عوامل ضعفها وانهاكها ، انظر : د . عطية ، **المصدر السابق** ، ص ١١٨ .

(٦٦) حسب تعبير الدكتور وميض عمر نظمي في ندوة مركز دراسات الوحدة العربية في مطلع العام ١٩٨٠ . حول ذلك ، راجع : مجموعة مؤلفين ، **القومية العربي في الفكر والممارسة** (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٠) ، ص ٦٤ .

وطالما ان الوقائع الواردة في هذه الدراسة وقائع ثابتة وصحيحة ، فان النتيجة الرئيسية لذلك يجب ان تكون واضحة . ففي ضوء كون تفسخ وانهيار وسقوط الامبراطورية العثمانية عائد الى مجموعة عوامل متعددة غير عربية متعلقة ببنيتها الداخلية ومتعلقة كذلك ببيئتها الخارجية المعادية والحاسمة ، يغدو الحديث عن الدور العربي في سقوط الدولة العثمانية ، بل وقصر الحديث على ذلك الدور كعامل وحيد (احيانا) في بلورة نهاية تلك الدولة ، حديثا مبالغا فيه الى حدود قصوى ، وتعسفيا يفتقر الى الاسانيد . ذلك ان الغاء العوامل الجوهرية (والفرعية ايضا) لصالح ابراز عامل القومية العربية الذي لم يكن له ، في المحصلة ، سوى اثر ثانوي على سقوط الامبراطورية ، يجعل من هذه العملية محاولة غير منزهة عن الهوى السياسي ، ومحشوة بالاعتبارات الذاتية غير الموضوعية ، ومتجنية على العرب وعلى ظروف ظهور حركتهم القومية .